472

HARLEQUIN

روايات أحلام

بائع الأمل

جيني آدامز

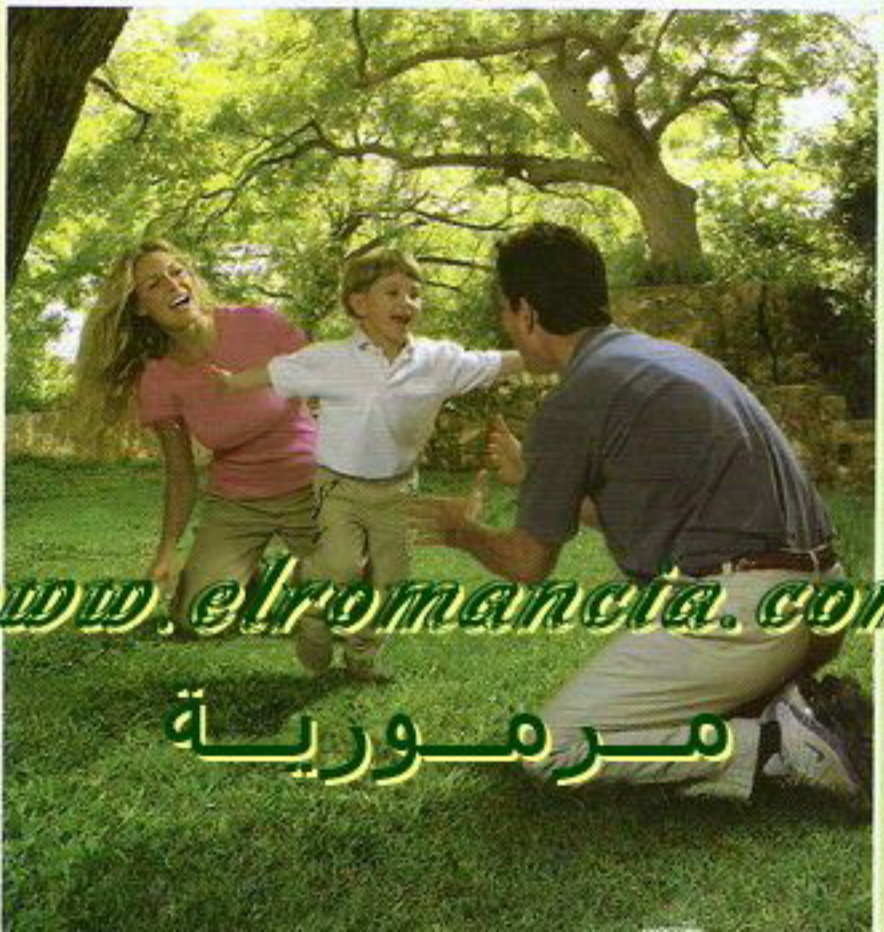

www.elromancia.com
مرمورية

بائع الأمل

تلقى ماكس ساوندرز أكبر صدمة في حياته عندما اكتشف أنه والد صبيين توأمين لم يكن عنده فكرة عن وجودهما . كيف عليه أن يواجه الموقف الآن بصفته والد دون والدة ؟ لم تعجب فوبي جيلبرت فكرة العيش مع ماكس كمربية ، لكنها لم تستطع أن تقول لا بينما طفلان صغيران بحاجة إليها . وسرعان ما أدركت أن ماكس يريد منها أن تلعب دوراً آخر ،أن تصبح زوجته. . . وفقط من أجل الأولاد ! هل يظن أن هذا كل ما يعنيه الزواج ؟ وتمنت فوبي لو أن بإمكانها أن تضع كفيها على أذنيها كيلا تسمع كلمة أخرى . حاولت أن تبدو وكأنه لم يقدم لها لتوه القمر والنجوم ثم سلبها إياها فوراً . .

جيني آدامز

منذ طفولتها كانت هذه الكاتبة تختفي في إحدى زوايا مزرعة والدها، وفي يدها كتاب. وَلَعها بالمطالعة جعلها تحمل القلم وتبدأ الكتابة منذ سن الحادية عشرة. عملت جيني في مجالات عدة، فكانت موظفة في مصرف، ثم مدرّسة عزف على البيانو، وسكرتيرة في مكتب محاماة؛ وتنقّلت في أعمال كثيرة أخرى. التقت حب حياتها فتزوجا ورزقا بولدين أصبحا الآن راشدين. وهي تقول إنهما أعز شخصين إلى قلبها في هذا العالم.

أدركت جيني أنها ترغب كثيراً بكتابة القصص العاطفية التي تحبّ قراءتها. وحلمها هذا تحقق وأوصلها إلى دار «ميلز أند بون» حيث صدرت لها روايات عدّة.

١ ــ طعام الغول

- مرحباً... أحد أفراد فرقة النجدة عند بابك على أتم الاستعداد للمساعدة.

واستقرت عينا فوبي جيلبرت على الطفلين في الغرفة، وفاض قلبها حناناً. بدا لها طفلا ماكس ساوندرز رائعين، وقد رفع أحدهما يديه مغطياً أذنيه وهو يصرخ بأعلى صوته، بينما راح الثاني يرفس جانب الكرسي في الغرفة.

بدا أن ماكس يحتاج فعلاً للمساعد، وكان يدير ظهره للباب وهو يحاول جهده ليبعد طفله عن الكرسي. لم يسمع ما قالته فوبي التي دخلت متجنبة علبة حبوب الفطور الكبيرة، ثم وقفت وسط الغرفة.

وعندما استوعبت مشهد الفوضى أمامها، تملكها إحساس من يعود إلى الوطن، لكن سرعان ما تبعته هزة عصبية مؤلمة، لأن هذا الإحساس زائف. فهي لم تعرف لها وطناً قط بما في ذلك «ماونتين جيم».

كانت فوبي تحدث نفسها بأنها تجاوزت تلك المشاعر كلها، وأن أمنيتها بأن يكون لديها أسرة تبددت. كان لدى فوبي قناعة ألّا تتمنى ما لا تستطيع الحصول عليه. ومن هو ذلك الذي يريد أن يؤسس أسرة مع امرأة نبذتها أمها وأبوها. كما أنها هي عاقر لا تنجب.؟

هزت كتفيها متمردة. تلك الأيام في ملجأ الأيتام انتهت وولت، والأمر الوحيد الجيد الذي فعله أبوها هو أنه يسّر لها الدخول إلى مدرسة داخلية عندما أصبحت في الحادية عشرة من عمرها.

www.elromancia.com

إنها حالياً تعتني بالأطفال نهاراً، أطفال صغار تستمتع بهم وهي تنتقل من عمل إلى آخر. ولم يكن هذا يرهقها ما دامت لا تسمح لنفسها بالارتباط كلياً. كانت مكتفية ذاتياً وهذا مثار فخرها. لم تكن بحاجة إلى أي شيء أكثر مما لديها حالياً.

في الماضي كانت تشعر في منزل «ماكس ساوندرز» بأنها متطفلة. كانت تزور صديقتها كاترين ساوندرز، هذه الصداقة التي ما لبثت أن تحولت إلى أخيها الأكبر ماكس ساوندرز إنما ليس على النحو نفسه.

كان سهلاً عليها أن تخفي مشاعرها نحوه، وقد جاءت اليوم بطلب من ماكس، لكي تنقذه. لقد طفح الكيل. نعم، وهذا هو سبب فيض مشاعرها بعد طول إخفاء. وبعزم شديد، ركزت أفكارها على هذا المكان وهذه الساعة.

وعادت تقول بصوت أعلى: «مرحباً، ماكس. لقد طرقت الباب لكن أحداً لم يجب. وهكذا دخلت من تلقاء نفسي».

كان ماكس ذا شخصية قيادية حتى وهو يدير ظهره. كان طويلاً، عريض الكتفين، أسود الشعر، طويل الساقين. وعندما واجهها أدركت أن عينيه الرماديتين ستخترقان عينيها.

رباه، إنه ماكسي. خصمها منذ مدة طويلة. الرجل الذي يتجنّبها كلما تقابلا. ورمشت وقد قررت أن هذا يكفي. زفرت طويلاً: «أرى أنّ رجال ساوندرز يبذلون جهدهم. طفلان في الرابعة يحدثان من الضجيج والصخب أكثر من أطفال سيدني كلها مجتمعين».

وحصلت المعجزة وتوقف الطفلان فجأة عن إحداث الضجيج. استدار ماكس بسرعة، فتوقف قلبها للحظة عن الخفقان ليعود ويخفق بعنف. وتملكها نوع من الذعر. حدثت نفسها بأن تستيقظ فهذا ليس انجذاباً نحوه. لا... هذا غير ممكن، إنها متأهبة لمعركة. نعم، هذا أفضل: «مرحباً، يا ماكس، ها أنذا. أراهن على أنك مسرور لحضوري».

وبدلاً من أن يبدو عليه السرور تصلب جسده وقال بلهجة جادة: «فوبي».

ما الذي حدث له؟ ألا يتذكر أن هذه فكرته هو؟ ما كانت لتترك عملها وتنتقل إلى خارج سيدني لو لم يوضح لها أنه بحاجة إليها. صحيح أن هذا حصل من خلال كاترين، ولكنها مع ذلك لم تتوقع أن يعترف ماكس بحاجته إلى العون. كما أنها أتت لمساعدة الطفلين، وليس من أجل ماكس. عندما اتصلت كاترين بفوبي من أميركا، لم تقل لها فقط إن ماكس لا يواجه الأمور بنجاح. بل لمّحت إلى أن ماكس يسعى جاهداً لوضع الولدين في زاوية صغيرة من حياته في أسرع وقت ممكن. أثار هذا قلق فوبي فيما راح ماكس يحدق فيها. وعادت تقول: «نعم، هذا أنا بلحمي ودمي. نظراً للظروف، ظننتني سأحظى باستقبال أفضل».

إنها هنا لتسيطر على هذه الفوضى كلها. ربما اعتقادها بأنه سيشعر بارتياح بالغ عند رؤيتها مجرد حلم، لكنها توقعت بعض التهذيب على الأقل، وليس العودة على الفور إلى عدائهما القديم. بمعنى آخر، إنتعشت آمالها ثم عادت فانهارت واستعادت حجمها الطبيعي... فالحياة ليست سهلة، كما أدركت فوبي فالإنسان هو الذي يسعد نفسه أو يتعسها.

تخلل ماكس شعره الأشعث بأصابعه: «فاجأتني في لحظة سيئة».

لطالما تمنت أن تتخلل شعره الجعد قليلاً والمألوف لديها بأصابعها، لكن هذا لا يعني شيئاً فهي تحب كل ما هو ناعم. إنها حقاً غير مسؤولة عن وسامة ماكس، أو عن إعجابها به الذي يستحيل هذه المرة إلى مشكلة أكثر من المعتاد.

وعاد الصراخ مرة أخرى فصرخت بصوت أعلى منه: «أظنكم مررتم ببعض اللحظات السيئة اليوم».

واشارت إلى شيء أخضر عالق على قميصه وهي تقاوم رغبة في

الابتسام. لم يسبق لماكس أن وقع في أيّ مأزق. وسألته: «هل كان الغداء متعباً؟».

- نعم، واجهت مشكلة طفيفة في الخطة التي وضعتها للطعام.

وضاقت عيناه وأطبق شفتيه بعناد، فأدركت أنّ سؤالها هذا أزعجه. كان يصبر عليها في الماضي ولا يدعها تجرحه. إنه يواجه حقاً بعض الصعوبات. وقال: «إذا كنت قادمة لزيارة كاترين، فأظنك اخترت وقتاً غير مناسب لأنها غير موجودة».

- حسناً، نعم. أنا أعرف هذا.

لِمَ يتظاهر بأنه لم يكن يتوقع حضورها؟

أشار بيده إلى الفوضى خلفه: «أنا مشغول كما ترين ما يمنعني من الاحتفاء بك».

- ماذا تعني بقولك، الاحتفاء بي؟

وجاء دورها لتقطب حاجبيها. على أي حال، طلب ماكس أو طلب كاترين بالنيابة عنه هو ما أحضرها إلى هنا. وهي تعلم أيضاً، كما يعلم الكل، أن الثلوج احتجزتها في مونتانا، ومن غير المحتمل أن تعود قريباً. ومع ذلك، ها هو ذا ماكس يتصرف وكأنه لا يعلم أنها قادمة. وتملكها شعور بالخوف ما لبثت أن سيطرت عليه وقالت: «ألم تخبرك كاترين أنني سأكون مربية طفليك؟».

وأدركت فوبي، وهي ترى عدم الفهم على وجه ماكس، أن ظنها صحيح. لا عجب في أن كاترين بدت حذرة في حديثها على الهاتف.

أظلم وجهه وقال: «هل تآمرت مع كاترين لتكوني مربية طفليّ؟».

تملكها الغضب وخفقت بأهدابها قبل أن تقول: «طلبت مني المساعدة ووافقت، وهذا يختلف جداً عما تظنه يا ماكس».

إنه يتهمها بالتآمر إذن! وخطر لها أن تتركه لكبريائه ومشاكله وتعود أدراجها، لكنها رأت أن طفليه يستحقان أفضل من هذا.

إنهما يستحقان رعاية حقيقية، وهذا هو اختصاصها.

يمكن لأي أحمق أن يرى أنهما يشعران بالخوف وفوبي قادرة على أن تعالج ذلك. لن تدع تصرفاً بسيطاً من أب جديد غير كفؤ يقف في طريقها، حتى لو كان ذلك الرجل ماكس ساوندرز. قالت: «في الواقع جئت بناء على التماس منك».

فزمجر قائلاً: «أنا لم ألتمس شيئاً كهذا وخصوصاً منك».

تنفست بعمق، ثم اندفعت تقول: «هذا ليس ما جعلتني كاترين أفهمه. لقد قالت...».

قال وقد ازداد وجهه تجهماً: «ما قالته غير مهم. يمكنني أن أتكهن به. سأقتلها...».

- مهما يكن...

لم تعد فوبي في الثالثة عشرة أو في السادسة عشرة من عمرها، تلك السنوات التي أمضياها في الخصام. كان ماكس يكبرها بثلاثة عشر عاماً ما منحه بعض السلطة عليها لفترة معينة. لكنها ما لبثت أن تعلمت كيف تثبت في موقعها وتواجهه في النقاشات التي تدور بينهما.

إنها الآن فتاة ناضجة في الثانية والعشرين، تعمل كإخصائية عناية بالأطفال، وهي خلاصه في هذه الحالة. لن تسمح له بإرهابها وبالتالي هزيمتها من دون مقاومة. كما أنها تعشق هذه الجبال ومراعي الأغنام وبساتين التفاح التي تملكها أسرة ساوندرز منذ أجيال. كانت فوبي ترفض أن تعترف، ولو في سرّها، بأنها تشعر دوماً بالحاجة إلى الحضور إلى هنا لتستعيد ذلك الشعور الزائف بالإنتماء. لو كانت تملك مزرعة «ماونتين جيم» لعملت فيها بنفسها بدلاً من أن تتركها لمدير هو نفسه لا يسكن في المزرعة. وسألته بجفاء: «كيف يسير العمل بالأحجار الكريمة؟ هل كسبت المزيد من الملايين مؤخراً؟».

كان ماكس قد عقد مؤخراً صفقة مع «شركة دانفر» لبيع الأحجار الكريمة الثمينة في متاجر دانفر الأسترالية. وقد عرفت فوبي هذا من كاترين التي أبلغتها بمدى سرور ماكس بهذه الصفقة.

كما ذكرت كاترين أن ماكس خرج مع ابنة «كاميرون دانفر» «فيليسيتي» مرة أو اثنتين في الأشهر الأخيرة. وتساءلت فوبي عما إذا كان ماكس يمزج غالباً بين العمل والمتعة، ثم نبذت هذه الفكرة. لِمَ عليها أن تهتم بالصف الطويل من النساء اللاتي مررن في حياة ماكس؟

- سأدع فريق الإدارة يقدم لك التقرير.

ردّ عليها بجفاء رافعاً صوته فوق ضجيج ولديه اللذين لم يكونا سعيدين على الإطلاق: «منذ علقت هنا ورحت أعمل من البيت، أشعر وكأنني لم أعد أعمل. من أين تريدين أن يبدأ التقرير، أولاً؟ اليونان؟ فرنسا؟ ألمانيا؟».

جعل الأمر يبدو وكأن رعاية الأطفال عذاب خالص، وكأنه أمر مفروض عليه ولا يريده. لعل هذا هو شعوره بالضبط. إذا كان الأمر كذلك، فلا بد من وجود شخص هنا للعناية بالطفلين: «في الواقع يا ماكس، لا يهمني عملك إلى هذا الحد».

- هل هذه وخزة منك، يا فوبي؟

نظرت إليه من دون ندم: «لم أقصد الإساءة. كنت فقط أعبر عن أفكاري».

- وهو أمر خطر دوماً عندما يتعلق الأمر بك.

- ثمة التزامات في الحياة أهم من المال.

حملق فيها: «هل تعنين شيئاً بكلامك هذا؟».

عبست فوبي ثم قالت: «ما زال يبدو عليك أنك بحاجة إلى مساعدة».

نظرت إلى الولدين وهما يصرخان ويرفسان بأقدامهما. لا يمكن أن تتركهما أبداً لماكس.

وأجاب: «أنا بحاجة إلى الكثير منها. إنما عليّ أن أقول إنّ كاترين احتالت علينا، نحن الاثنين، وليس عليك فقط. هذه هي الحقيقة».

لوّحت بيدها مصممة على أن تنهي هذا الحديث لتبدأ موضوعاً مختلفاً. يكفي هذا الكلام الفارغ وانتقاده لشخصيتها. إنها تعرف أنها مختلفة، من النوع الذي يعكّر المزاج ويخيف معظم الناس.

- تبدو وكأنك لم تذق النوم منذ أيام عدة، فشعرك مشعث ولحيتك نابتة، وهذا ليس من عادتك على الإطلاق.

ورغم ذلك، ما زال يبدو رائعاً، فهل من عجب إذا ما أرادت أن تنفّس عن مشاعرها بانتقاده؟ هذه المشاعر المشوّشة نحو ماكس كافية لتدفعها إلى الجنون. إنها تشعر اليوم بأنها عادت إلى الوطن، هنا في أدغال قرية «ماونتين جيم» الكثيفة، حيث تنمو أشجار المطاط والأشجار القصيرة...

- سواء شئت أن تعترف أم لا، أنت بحاجة إليّ حالياً.

آه، ما أجمل ما شعرت به وهي تقول هذه الكلمات فهو يكره أن يوافقها الرأي.

زمجر عالياً: «ما أحتاجه هو مربية كفؤة ناضجة يمكنها أن تعوّد طفليّ على الحياة هنا. إنهما بحاجة إلى الاستقرار هنا، وحالاً».

- تنظيم الأمور وترتيبها؟ لن ينجح هذا كما تعلم.

وسكتت تفكر في كلامه، ثم عادت تقول: «ولمعلوماتك أنا كفؤة. عليك أن ترى شهادات من عملت لديهم. لقد رعيت أطفالاً لا أذكر عددهم...».

قاطعها وكأنه لم يكن يصغي ولعله لم يكن يفعل: «أعترف بأنني فقدت ثلاث مربيات بشكل سريع».

وصمت لحظة ثم أردف: «كان الطفلان نزقين وسريعي الغضب. ولم تكن أيّ من المربيات الأخريات تملك خبرة كافية. بصراحة، لا أظنك ستبقين معهما مدة أطول مما بقيت المربيات الأخريات».

- لهذا، تريدني وبكل بساطة أن أنسحب؟

بدلاً من أن يجيب على الفور، نظر إلى قميصه عابساً ثم سحبه من

تحت سرواله وكوّره بيده السمراء. عندئذ، تقابلت نظراتهما. كانت عيناه باردتين عنيدتين لا يرف لهما جفن: «أنا مسرور لتفهمك. والآن، وبعد أن اتفقنا، سأرافقك حتى الباب».

سار أمامها راغباً على ما يبدو في التخلّص منها في أسرع وقت ممكن. وأخرسها حقد الرجل هذا، فضلاً عن مظهر جسده عارياً.

حاولت جاهدة أن تتمالك نفسها لتقول: «لا أراك تطردني، لن أرحل».

دفعته بكفها تمنعه من الوصول إلى الباب، وسرت السخونة في جسدها حين لامس كفها صدره الصلب الساخن. يا لها من غلطة! تراجعت مضطربة فزعة نوعاً ما لأن جسدها أخذ يحدثها بأن هذا الرجل... رجل جدير باهتمامها كأنثى.

لم يعد يزعجها الآن إحساسها بالعودة إلى موطنها بل انجذابها إلى ماكس. لعلها حاولت أن تنكر ذلك، لكن البرهان كان على أصابعها التي امتلأت شوقاً. كانت في منطقة غريبة تماماً وليس لديها فكرة عن كيفية مواجهة هذا التغيير.

قررت أن تتجاهل شعورها، راجية أن يكون قد انتهى. ستنفض عنها هذه المشاعر ومن ثم تنساها لتصبح ذكرى باهتة لن تتكرر أبداً.

- سأمكث هنا يا ماكس، وسأساعد طفليك.

إذا ركزت اهتمامها على الغرض من حضورها إلى هنا فستكون في أحسن حال. واعتدلت في وقفتها ثم دارت حوله: عملت في «سيدني بلاتيبوس» لرعاية الأطفال نهاراً».

حتى ألقوا بها خارجاً لأن لديها الكثير من النظريات. كانت هذه النهاية السيئة الوحيدة التي صادفتها في حياتها العملية، حتى الآن.

وتابعت تقول: «صدقني إن قلت إن طفلين في الرابعة دائمي الصراخ لا يخيفانني أبداً. وكذلك والدهما. أنت تريد مربية جيدة لطفليك، وقد حصلت عليها».

تمتم من بين أسنانه: «ما حصلت عليه هو مزيد من الإزعاج».

حثها ما سمعته على الثأر فقالت: «لا تقل لي إنّ «ماكسيميليان»، الشهير بماكس، لا يستطيع أن يتعامل مع طفلين ومربية، هذا لا يبدو لي تحدياً كبيراً».

توتر فمه، وحدثت نفسها بأنه يستحق ذلك والذنب ذنبه. ليته يقف جانباً لكي تريه كيف يكون العمل.

كما أنها لم تحاول العثور على عمل جديد عندما أخبرتها كاترين أن ماكس بحاجة إلى من يساعده إذ كانت عاطلة عن العمل نوعاً ما، فتركت غرفتها الصغيرة في سيدني لتأتي إلى هنا، والوقت لا يسمح لها بالانتقال إلى مكان آخر حالياً.

وتعمدت أن ترفع صوتها من دون أن تنظر إلى الصبيين: «أنا جائعة جداً، هل تمانع في أن أذهب إلى المطبخ لأحضر شطيرة كبيرة ضخمة؟ هل لديك مانع يا ماكس؟»

بدا الفزع على وجه ماكس وعلى ملامح الصبيين فتركتهم فوبي وتوجهت نحو المطبخ حيث فتحت الثلاجة. تملكها الرعب لمنظر المطبخ. لطالما فاخر ماكس بنظافة وتنظيم مطبخه، لكنه بدا حالياً مغطى بالقمامة بينما تصل الفوضى فيه إلى السقف. أخذت تقلّب بقايا الطعام في الثلاجة، ملقية بكل ما هو صالح للأكل في طبق نظيف. راحت تثرثر طوال الوقت عن مدى شهيتها وعن مدى سرورها بتحضير هذه الشطيرة... وأضافت أنها قد تتجشأ في النهاية

وقف ولدا ماكس بجانب الباب كتفاً إلى كتف، صامتين يحدقان في الشطيرة الضخمة التي حضّرتها فوبي بيديها الماهرتين.

أملت أن يكون ماكس قد خزّن من المؤونة في خزانات المطبخ أكثر مما وجدته في الثلاجة، لكنها ركزت حالياً اهتمامها على شطيرتها وعلى إطعام الصبيين علّ الإرهاق يجعلهما يستسلمان للنوم. راحا يتأملانها بأعينهما العسلية التي لا بد أنهما ورثاها عن أمهما الراحلة. يا للطفلين المسكينين!

- هممم... لم أحصل على شطيرة كهذه منذ ألف سنة.

وقطعت الشطيرة إلى أربعة أقسام ضخمة ثم حشت فمها بقدر ما أمكنها وأخذت تمضغ بلذة ظاهرة. لم تكن الشطيرة سيئة المذاق، وقالت: «أنا بحاجة إلى بعض الحليب لكي ينزل هذا إلى البطن».

الأمر الوحيد ذو الأهمية الذي وجدته في الثلاجة هو نصف زجاجة من الحليب. سكبت القليل من الحليب وشربته، ثم قالت باستحسان: «هذا رائع. لقد ارتاحت معدتي الآن».

وأخذت تلامس بطنها وهي تتابع: «لكن ليس بإمكان أي شخص أن يأكل شطيرة ضخمة كهذه، وحدهم الأقوياء الشجعان يستطيعون ذلك. وكذلك أولئك الذين يشربون الحليب من بعدها لكي يجرفها إلى البطن كما يفعل «الغول».

لمحت ماكس وكادت تنفجر ضاحكة للحنق البالغ البادي على ملامحه. ألم يفهم ما تقوم به؟

وقالت له: «شكراً على الطعام، يا ماكس. أنا واثقة من أنك لا تمانع لو تصرفت على هذا الشكل».

وضحكت له وهي تحذّره في سرها من أن ينسف كل جهدها، فالطفلان يكادان يستسلمان. إنها تشعر بذلك، لكن إذا لم يستحسن ماكس عملها هذا فالله وحده يعلم ما سيحدث.

تمنت لو يلبس قميصاً. عجباً كيف يمكن أن يشعر الرجل بالارتياح وهو شبه عارٍ غافل عن تأثير ذلك في الآخرين؟

وضعت الشطيرة في فمها قبل أن تنطلق هذه الفكرة من فمها المتهور، ثم أدارت حدقتي عينيها لتنظر إلى الطفلين بينما هي ترشف مزيداً من الحليب.

في أي لحظة سيتخليان عن حذرهما ويسمحان لها بأن تساعدهما.

وفي أي لحظة ستتخلى فوبي عن رغبتها في أن تمرّر كفيها على صدر ماكس العاري. يمكنها أن تتدبر أمر الرغبة في الشطائر لكن النوع الآخر من الرغبة مشكلة كبرى.

٢ ــ ألا تتعبين؟

- أتظنين أن بإمكاننا أن نأخذ مصلحة الطفلين بعين الاعتبار؟

وحملق ماكس في هذه المتطفلة في مطبخه وهو يعجب لشعوره البالغ بالحاجة إليها. رغبته في أن يخنقها تعادل قوة الرغبة التي راودته ذات مرة في أن يعانقها! الرغبة الأولى كانت طبيعية تماماً، وكان يشعر بها طوال الوقت. أما الثانية فشكّلت صدمة له.

هذه هي «فوبي»، صديقة أخته الجامحة. كانت رؤيته لها تدفعه لأن يصرف بأسنانه. وهو، فعلاً، يصرف بأسنانه الآن.

كان شعرها المتمرد الذي يتدرّج لونه من الأشقر إلى البني مكوّماً فوق رأسها وفي وسط هذا الشعر وجه وردي اللون تميّزه عينان سوداوان. كان لها وجه عفريت صغير، بذقن مستدق الرأس يوحي له بالتحدي على الدوام. وتمتمت وهي تمضغ الشطيرة: «أنا أعطي الأولوية لولديك».

- لا أظن ذلك.

وانتقلت نظراته من وجهها إلى ثيابها غير المتناسقة. كانت ملابسها العليا ذات لون وردي متألق للغاية ما جعل عينيه تؤلمانه، فيما قميصها الأخضر يتناقض معها بشكل كريه. وها هي، تأكل بهدوء بينما جيك وجوش واقفان ينظران إليها جائعين. كيف يفيد هذا الطفلين؟

- اهدأ يا ماكس.

كانت فوبي قد بلعت ما في فمها من طعام ثم استعدت لتناول لقمة أخرى ضخمة.

- أنا أريد رعاية كاملة للولدين على مدار الساعة، رعاية تقدّمها مربية كفؤة وليس مخلوقة عجيبة أشبه بجنية جائعة لا تعرف سوى التحدث بحماقة بشكل قد يجعل الولدين يصرخان في الليل.

وكأن ماكس بحاجة إلى مزيد من الهموم. في الواقع، لم يُخلق ليكون أباً، وهو لن ينسى المشاكل التي واجهها عندما حاول أن يربي أخته كاترين بعد موت والديهما. بعد أسابيع قليلة من المحاولة، توسلت إليه أخته ابنة الإثني عشر عاماً كي يعود إلى العمل لساعات طويلة. بعدئذٍ، جاء دور جيك وجوش ليصبحا تحت رعايته لكنه لم يصادف أي نجاح . . . لعله ناجح في كسب المال لكنه فاشل جداً كرب أسرة. وكلما أسرع في وضع ولديه تحت رعاية جيدة منظمة وعاد إلى عمله كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للجميع.

عليه أولاً أن يتخلص من هذه المرأة التي اسمها فوبي. لكنه ما لبث أن شعر بالندم. لعلها تأكل لأنها جائعة، فهي تبدو أكثر نحولاً مما رآها آخر مرة. . . متى؟ منذ ستة أشهر. أليس لديها ما يكفي من المال؟ هذه الفكرة جعلت الغضب يعود فيتملكه وهو يتذكر كيف كانت ترفض عرضه كلما أراد أن يتأكد من اكتفائها مالياً.

كانت صديقة كاترين، وهو لديه الكثير من المال. . . لكن فوبي تبقى فوبي على الدوام، عنيدة متصلبة لا تريد أن تصغي إلى كلام كهذا. . . حتى إلى أكثر الآراء حكمة. كان يمكن أن تقبل منه بقرض لكي تستقر في بيت خاص بها ثم تتعلم مهنة ما، لكنها رفضت وأخذت تتنقل من عمل إلى آخر بحسب مزاجها.

- ما الذي كانت كاترين تفكر فيه حين دعتك للمجيء إلى هنا؟

ولِمَ ما زال هو يقف هنا سامحاً لهذه المهزلة بأن تستمر؟

- فكرت بذكاء وهو ما يبدو أنك فقدت القدرة على القيام به حالياً.

ولعقت قطرة حليب على جانب فمها فتقلصت معدته.

ولم يفهم لما يحدث له هذا. هذه فوبي لعنة حياته. إنه لا يراها مثيرة. لكن مشاعره أخذت تكرر أنه كذاب. . . كذاب. . .

- أنا لا أخاف من الشطائر الكبيرة.

- ولا أنا.

تقدم الصبيان من فوبي بخطوات ثابتة وذقن مرفوعة. منذ وصولهما إلى البيت أيّ منذ أسبوع وهما يلعبان ويصرخان من دون توقف ويحربان ويهشمان كل ما تصل إليه أيديهما. وكان أبوهما يتساءل دوماً عن نوع الانفجار التالي. قد تجعل فوبي ولديه يتكلمان، لكن طرقها يمكن أن تقود إلى المشاكل، ومن الأفضل أن يتخلص منها الآن. سمّرها بنظرة غاضبة وأشار إلى غرفة الجلوس: «إذا ما انتهيت من تدمير مطبخي تماماً، علينا أن نتحدث».

- ليس الآن.

ابتسمت له بلطف، لكن التهديد التمع في عينيها الزرقاوين.

- لا يمكن للمرء أن يترك شطيرة كبيرة في مكانها فقد تقفز فجأة وتهرب.

- لا تجعلي نفسك سخيفة أكثر مما أنت عليه فعلاً.

لقد سمع ما يكفي من حديثها السخيف هذا. . . لكن الولدين ضحكا وأخذا يهللان لثوانٍ.

ودار في أعماق ماكس صراع. كيف سيتمكن من القيام بهذا؟ إنهما عاجزان للغاية، وهما بحاجة إليه. كيف سيتمكّن من أن يربيهما أو بالأحرى، يجد من يربيهما؟ ويكون على مقربة بحيث يسد النقص؟ شخص يسمح لهما بالاستمتاع بحياتهما والشعور بالسعادة؟

قال جيك: «أنا آكل هذه».

فأضاف جوش: «وأنا أيضاً».

همهمت فوبي لكنها تقدمت منهما تشاركهما الشطيرة الضخمة

وعيناها تلمعان برضى.

وبعد لحظات، كان ولداه يأكلان ووجهاهما يطفحان سروراً.

شرب كل منهما كوباً من الحليب، وبينما كانت فوبي تجمع الأطباق المتسخة وتضعها في الحوض وقف ماكس يحدق في ما يحصل بذهول وقد تسمّرت قدماه في الأرض.

لم يمض على وجود فوبي هنا سوى دقائق، وإذا بها تتمكن من جعل الطفلين يأكلان من يدها. هذه المعجزة الصغيرة... كيف حدثت؟ لم يكن لديه وقت ليفكر أكثر فحالما انتهى الولدان من الأكل والشرب حتى تدلّى رأساهما فسارعت فوبي للعمل وهي تقول: «ثياب النوم النظيفة إلى الحمام، يا ماكس».

وحملت الطفلين ثم ابتعدت بهما.

لحق بها ماكس حاملاً ثياب النوم، فوجدها قد غسلت وجهيهما وخلعت عنهما ملابسهما فألبستهما ملابس النوم ووضعتهما في فراشهما قائلة لهما: «سأنام في الغرفة المجاورة لغرفتكما حيث يمكنكما أن تناديني إذا كان الفراش غير مريح أو لأي سبب آخر».

واتجهت إلى الباب وهي تضيف: «أنا أعرف غرفتي لأنني سبق ونمت فيها كثيراً من الليالي من قبل، ليلة سعيدة».

ولوحت لهما بيدها وهي تبتسم ابتسامة عريضة ثم خرجت من الباب وهي تجرّ ماكس معها. احتكاكها به جعل جسمه يرتعش.

- سيصيحان قبل أن تلتقطي أنفاسك.

وقف في الممر منتظراً أن يسمع صراخاً أو صيحة غضب أو خوف لكنه لم يسمع شيئاً.

ووجد ماكس نفسه يواجه خيارين، إما إبقاء فوبي وإما طردها من منزله، وكانت رغبته في الأمرين متماثلة فقال لها بخشونة: «أنا من التعب بحيث لا يمكنني التفاهم معك الليلة».

كانت خشونة صوته تماثل شعوره نحوها. إنها صديقة أخته

المفضلة.

- لا أستطيع أن أتركهما نائمين لأعيدك إلى المدينة كما أنّ البستاني الجديد خرج الليلة ولن أستطيع أن أطلب منه ذلك. سيكون عليك أن تبقي هنا الليلة.

- لا داعي لأن تشكرني الآن.

وتجاوزته إلى الغرفة التي كانت تستعملها كلما جاءت لزيارة أخته وهو أمر لم يعد يتكرر مؤخراً، قبل أن تضيف: «أنا أدرك أن كبرياءك قد جرحت الآن. اذهب لتنام وربما ستتمكن غداً من أن تتقبل فكرة أنني أحسن ما حدث لك هذا الأسبوع».

- لن تبقي هنا.

لكن كلماته هذه ذهبت عبثاً لأنها كانت قد صفقت الباب في وجهه.

أخذ يحدّق في الباب. من تظن نفسها على أيّ حال؟

* * *

كان هذا صوت تحطم ضخم. في الواقع، لم يبد هذا مهماً حتى التفتت فوبي لترى الخراب، فهتفت: «لقد وقعت في ورطة الآن».

كانت يدها على مقبض باب سيارة ماكس الضخمة الرباعية الدفع تستعد للخروج عندما تذكرت ما لديها وكانت نسيته لجزء من الثانية، وهو أنها ليست وحدها.

لم يتردد الطفلان في أن يذكراها بوجودهما وقال جيك الذي استطاع أن ينزلق من مقعده في السيارة ليتمكن من رؤية شرفة البيت الريفي المحطمة: «لقد حطمتها. سيجن ماكس... سيجن، يجن، يجن!».

عبست فوبي في المرآة وهي ترى الوجهين الضاحكين المتشابهين مفكرة في روعة أن يشعرا بكل هذا الأمان والسعادة ما يجعلهما يعبران عن نفسيهما. قالت: «ماكس هو أبوك يا جيك وكما قلت لك

مرات عدة اليوم، عليك أن تناديه (بابا) وليس ماكس. كما أنك لا تدري إن كان سيجن لأنه لم ير الضرر بعد».

كانت فوبي تعلم أنه سيغضب، لكن هذه ليست مشكلتها الآن. لقد نجحت اليوم أيضاً إذ أيقظت الولدين وألبستهما ملابسهما ثم أخرجتهما من البيت لتدع ماكس ينام.

أرغمت نفسها على قيادة سيارته الضخمة إلى أقرب مدينة كبيرة بالرغم من خوفها، واشترت للطفلين فطوراً بما بقي لديها من نقود تقريباً. لقد فعلت هذا كله لمساعدته. ولكن هل سيفكر ماكس في هذا الآن؟ إنها تشك في ذلك. لم تشأ فوبي أن تعترف بأنها تريد أن تنال استحسان ماكس على مجهودها الإضافي هذا. ما الفائدة من ذلك؟

وركلت الفرامل بقدمها بإحباط... إنه ذنبه إذ ترك المواد الغذائية تنقص بهذا الشكل، فلا حبوب فطور في الخزائن ولا حتى الحليب. كما لم تجد خبزاً أو فاكهة.

ورفضت أن تعترف بأي مشاعر أخرى مثل القلق أو الخوف أو الشعور بالذنب. هذه المشاعر كانت في ما مضى حين كانت مراهقة لا تشعر بالاستقرار، خصوصاً هنا، تحت نظرات ماكس التي تراقبها على الدوام. وتمتمت بأن صداقة كاترين كانت تستحق ذلك. إنما ثمة أمر واحد عليها أن تفعله، أن تصل إلى ماكس قبل أن يصل هو إليها. وقالت بملامح جادة للغاية: «جيك، جوش. انتظرا هنا حتى أخرجكما. إياكما أن تتحركا، مفهوم؟».

نزلت فوبي من السيارة إلى حيث هواء الصباح المنعش ببرودته وتنفست بعمق. لمحت شاباً يعمل في إحدى الحظائر بعيداً، لكن لا بد أنه لم يرها. أتراه... البستاني الجديد؟

ما الذي كانت تفكر فيه وهي تقود السيارة بتلك الطريقة؟ هذا حسن، فلتذهب لمواجهة العاصفة الآن. وفيما اتجهت نحو المنزل، جاء ماكس متجهماً، وفي عينيه نظرة تنذر بالسوء. كان يرتدي بنطلون

جينز وقميصاً أسود مقفلاً بدا وكأنه لبسه على عجل، وقد تشعث شعره من الفراش لتوه، وحدثت فوبي نفسها بأن تهدأ وتتماسك لتنهي الأمر كعادتها.

- لِمَ لا يدهشني أن أرى سيارتي تصعد إلى الشرفة؟ الشرفة التي أصبحت مهشمة الآن تماماً. آه، صحيح. هذا لأنك في المنزل.

وتحولت نظراته إلى طفليه اللذين كانا لا يزالان يحدقان ضاحكين من فوق ظهري مقعديهما.

- كنت أعلم أنك ستؤثرين عليهما بشكل سيء وها هو ذا البرهان. لم يمض حتى أربع وعشرين ساعة على حضورك. لا أظنك ستحاولين شرح ما كنت تفكرين فيه.

- كنت أعلم أنك ستتصرف بهذا الشكل.

لعلها أخطأت قليلاً في هذه المسألة بالذات، لكنها لم تشأ أن تعترف بذلك.

وتقابلا وجهاً لوجه أسفل الشرفة.

- ما الذي جعلك تأخذين سيارتي وتتلفين الأشياء بها.

وأشار إلى السيارة ثم إلى الضرر الذي تسببت به وأضاف: «انظري ماذا فعلت. أنت تعلمين أنك لست سائقة ماهرة. ما كان لك أن تصعدي إليها قط».

- لو كنت سائقة سيئة، وأنا لست كذلك، فعليك أن تلوم نفسك. أيظن أن ما حدث جعلها سعيدة؟ لقد حدث هذا عن حسن نية.

-أنت من حاول أن يعلمني القيادة، لكنك أظهرت أنك لست بالرجل الذي يجيد عمله. في الواقع أنا أخذت السيارة لأساعدك.

- لا أفهم كيف أن تحطيم السيارة سيساعدني. ولمعلوماتك، لقد واجهت الموت منذ أشهر لكي أعلمك القيادة. ويبدو أن هذه هي طريقتك في شكري.

إنه يحمّلها الذنوب كلها. ولِمَ لا يفعل؟ ورفعت إليه وجهها الذي

بدا عليه التجهم: «كنت اشتري مواد بقالة، الثلاجة فارغة».

- وهل هذا ذنبي؟ أنت أكلت كل ما في المطبخ الليلة الماضية.

أخذ يتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها، من السروال الجينز الأزرق إلى الحذاء والجورب، ثم رفع عينيه عائداً إلى القميص البرتقالي اللامع. وبلغ منه الغضب أقصاه: «أنت فوضوية».

- وأنت غير عقلاني على الإطلاق.

ردّ ماكس ببطء ووضوح: «إذا كنت غير عقلاني فلأنك تثيرين أعصابي كلما تقابلنا فنبدأ بالصراخ على بعضنا البعض».

كانا من القرب من بعضهما البعض بحيث استطاعت أن تنظر في عينيه وترى الغضب العاصف عندما حدّق فيها. وانقطعت أنفاسها وحاولت أن تسيطر على سخطها. لا أريد أن أعانقه!

- سأدفع لك تكاليف إصلاح سيارتك وشرفة منزلك يا ماكس.

وابتعدت عنه وهي تهز بيدها وكأنها لم تشعر بالانزعاج لقربه هذا منها. فوضع يديه على وركيه: «لا بأس، سأتكفل أنا بهذا كله. كيف جئت إلى هنا أمس، بالمناسبة؟».

لِمَ يهتم بذلك؟ هزت كتفيها وردّت: «بإيقاف السيارات المارة».

فقال مستنكراً: «هذا خطر».

- إيقاف السيارات ليس خطراً حين تعرف السائق أو السائقة.

ونظرت خلفها مضيفة: «ولا تحاول أن تلهيني. سوف أدفع نفقة إصلاح السيارة والشرفة، أنا أتحمل مسؤولية تصرفاتي بعكس بعض الذين أعرفهم».

- أتعنين الوالد الجديد؟

وحذرتها لهجته، لكنها أومأت وردت: «نعم، بالضبط. أتساءل عن رأي آخر صديقاتك بالضيفين الجديدين في بيتك؟».

- ما من...

وهز رأسه، ثم انفجر قائلاً: «ها أنت تنتقدينني مرة أخرى. ألا

تتعين أبداً؟».

فوكزته بإصبعها في صدره: «أنا لا أفعل هذا بدون سبب».

بدأ هذا منذ وصولها الليلة الماضية، أو بالأحرى منذ أخبرتها كاترين أن ماكس اكتشف فجأة أنه أب. ربما من الأفضل أن تصرّح بذلك وينتهي الأمر: «لم يسبق لك أن كنت من النوع الملتزم، أليس كذلك؟ حبيبة تلو الأخرى، تودّع الواحدة منهن عند أول إشارة منها إلى أنها تريد علاقة طويلة الأمد. لا عجب في أنك لم تعلم أنك أب ويدهشني ألّا تهتم بأمر كهذا».

ووكزته بإصبعها مرة أخرى: «هل تريدهما حقاً يا ماكس؟ أنت لا توحي بذلك».

عندما نطقت بتلك الكلمات، أدركت أنها تمادت، وتمنت لو تستطيع أن تستعيدها. فقد ارتسم الجمود على ملامح ماكس وقال بصوت ببرودة الثلج وهو يمسك بذراعها: «أظن أن الوقت حان لتصمتي قبل أن أفقد أعصابي. أما بالنسبة إلى حياتي العاطفية فهي ليست من شأنك».

فقالت متظاهرة بالشجاعة: «هل يُفترض بي أن أخاف؟».

حملق فيها ببساطة: «لعلها فكرة جيدة».

- حسناً، أنا لست خائفة أبداً.

وجذبت ذراعها من يده فتركها. لكنها لم تستطع أن تدع هذا الحديث، فتابعت مدركة أنها تثير موضوعاً حساساً،: «هل تنكر أنك تحاول فقط أن تبعد ولديك عنك وتوكل رعايتهما لمربية، وبهذا يمكنك أن تتجاهلهما؟ لا يمكنك أن تدفن نفسك في العمل فقط، مدّعياً أنّ لا وجود لأي شيء آخر».

مضت لحظة لم ينطق فيها بأيّ كلمة. وعندما تكلم جاءت كلماته باردة: «سأفعل ما فيه مصلحة ولديّ وهذا، يا فوبي، أمر لن أبرره لك أو أتفاوض معك حوله».

ورغم أنه بدا غاضباً إلا أنها شعرت بأنها ألمته. تملكها الندم فمدّت يدها إليه: «ماكس».

تجاهل اليد وتراجع إلى الخلف، ثم أشار إلى السيارة: «لقد تملك الضيق الولدين. ربما عليك أن تخرجيهما من السيارة، إذا ما انتهى هذا الحديث».

عضت شفتها: «وماذا عنك؟ ماذا ستفعل الآن؟».

- سأدخل إلى البيت وأجري اتصالات بحثاً عن مربية جديدة.

لم تشأ الرحيل رغم أنها لم تظهر ذلك. أليس هذا غباء منها؟ أن تبقى هنا وتدور في الانحاء؟ وهذا ممكن إذا ما وطّدت صلتها بولديّ ماكس لكنها ستتألم عندما تضطر لأن تتركهما.

حاولت فوبي السيطرة على غريزة الأمومة لديها لكنها عجزت.

كما أنها رفضت الاعتراف بأنها ربما لا تريد أن تترك ماكس.

- افعل ما تظنه الأفضل يا ماكس. كل ما يهمني هو أن أشعر بأن ولديك في أيدٍ أمينة وهذا أمر أريد أن أتأكد منه تماماً.

هز رأسه: «هل أنا بحاجة حقاً لأن أذكّرك أن هذا أمر لا يعنيك؟».

هذا صحيح. ولم تجد ما تقوله فالولدان ليسا ولديها وليس لها أي حق فيهما رغم أنهما احتلا زاوية من قلبها بظرفهما وحدة مزاجهما.

لا ينبغي على فوبي أن تشعر بهذا الانجذاب نحو ماكس أيضاً، حتى لو كان الشعور جسدياً فقط.

- يمكنك أن تقول ما تريد لكن هذا لن يغير موقفي مثقال ذرة.

وبادلته التحديق، متأكدة من أنه لن يخمّن أنه لمس منها وتراً حساساً حين قال كلامه الأخير.

- أحقاً؟ سوف ننظر في هذا الأمر.

واستدار ماكس على عقبيه ثم ابتعد.

٣ ــ لن أحلم بالمستحيل

- حسن، فليحصل ماكس على مربيته الجديدة ويحضرها معه، ثم يطردني. وكأن هذا يهمني!

ألقت فوبي بمنشفتها المبتلة في سلة الغسيل، وسوّت قميص نومها القديم ثم خرجت من الحمام إلى الردهة. لم يعد ماكس بعد وكلما فكّرت فوبي في ذلك كان انزعاجها يتجدد.

ألقت نظرة على غرفة الطفلين ثم أومأت راضية عندما رأتهما مستغرقين في النوم. وعاد قلبها يخفق مرة أخرى فتنهدت. شعرت بأن الطفلين هما هبة من الله لها. في الواقع، كلما فكّرت أكثر في هذا النهار وفي الأمسية الماضية أيضاً، ازدادت غضباً. تمتمت وهي تسير بحذر مبتعدة عن الغرفة التي يرقد فيها الصبيان: الرجل لا يريدني هنا... وهو لا يثق بي، ومع ذلك يتركني وحدي مع الولدين طوال النهار من دون أن يخبرني عن مكان تواجده، وكأن حبي لهما لن يزداد عندما يتركنا معاً بهذا الشكل.

وأسرعت فوبي نحو المطبخ لتشرب كوباً من الشاي يريح أعصابها قبل العودة إلى الفراش. اليوم هو من دون شك آخر أيامها هنا كمربية. بعد ذلك، كل هذا الاضطراب الداخلي الذي يتملكها سيصبح من الماضي.

لاحظت ضوءاً خافتاً في آخر المطبخ. ووجدت ماكس جالساً إلى مائدة المطبخ يأكل الوجبة التي أعدّتها له، مكباً على مجموعة من

الوثائق. لا بد أنه عاد أثناء استحمامها.

سألته وهي تقف عند المدخل حافية القدمين: «أين المربية الجديدة؟ ظننتك ستحضرها معك؟»

كانت الغرفة باردة، والنوافذ الواسعة فوق الحوض تعكس سواد الليل الحالك.

كانت ملامح ماكس تعكس الضجر والمرارة ونبهت الصفة الأخيرة حواسها، فعبست بينها وبين نفسها. وكأن ليس لديها ما يكفي من الهموم والمشاغل. لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أن ماكس يعاني أيضاً ما جعل إسكات مشاعرها نحوه أكثر مشقة. لقد حيرتها فكرة أن ماكس يشعر بالرغبة فيها... ولو بشكل محدود! لقد تغيرت الأمور وهي لا تدري لما يحدثها قلبها بأنهما لن يتمكّنا قط من العودة إلى التعامل مع بعضهما البعض كما اعتادا.

نظر ماكس إلى صحنه، ثم عاد ينظر إليها: «شكراً لأنك تركت لي بعض الطعام، لم أتوقع منك أن تزعجي نفسك».

- صدّق أو لا تصدّق، عندما أبذل بعض الجهد يمكنني أن أكون غاية في التنظيم.

تملّك فوبي نوع من الارتياح وتملكتها الثقة بقدرتها على أن تكبت مشاعرها نحوه وأضافت: «في الواقع، لا أجد صعوبة في إعداد عشاء لأربعة أشخاص بدلاً من ثلاثة حتى لو كانت الإمدادات محدودة».

من الأفضل لها ألاّ تهتم بهذا الشعور بالشوق الذي يتملكها لأن ماكس قريب منها.

تقدمت إلى المطبخ فلاحظت لأول مرة الأكياس المكومة في زاوية بعيدة. يبدو أن ماكس وجد اليوم فرصة للتموّن، وسألته: «أنت لم تجب عن سؤالي. هل وجدت مربية؟».

دفع طبق الطعام بعيداً، ثم أشار إليها بأن تتقدم لتجلس قربه. استجابت رغماً عنها فما من أحد يحب أن يطرد من عمله، وهذا ما سيفعله ماكس في أي لحظة الآن.

عندما اقتربت منه، لاحظت أنه أكثر ارهاقاً مما ظنت واعترفت بأن وجودها هنا لم ينفعه كما أرادت.

من الأفضل أن تذعن لرغبته في طردها. فالرغبة التي تتملكهما في أن يقتل أحدهما الآخر كلما تقابلا، جعلتها لا تشعر بالدهشة لعدم رغبة ماكس في وجودها هنا.

ومع ذلك، امتلأت زاوية في قلبها ألماً لفكرة رحيلها. لكن عليها أن تتجاهل ذلك ما دام ماكس نظم الأمور بشكل مقبول، فمصلحة الولدين أهم.

- يمكنني ان أرحل من هنا متى شئت، يا ماكس.

ها هي ذي تيسّر له الأمور من دون أن تشعر وكأنها تقتطع جزءاً منها، فهي معتادة على رعاية نفسها. وتابعت تقول: «جئت فقط لأساعدك لأنني ظننتك تريدني، لكن الأمور سارت بشكل سيء».

فقال بخشونة: «كان مزاجي هو السيء».

- نعم، كنت في ورطة. وهذا طبيعي، فقد جاهدت لكي أجعل جيك وجوش يمضيان نهاراً معقولاً، وذلك بإبقائهما مشغولين.

هز رأسه: «كما أنك نظّفت معظم المنزل، لم تكوني مضطرة إلى...».

- أعرف هذا.

ومع ذلك، رغبت في أن تلعب دور ربة المنزل... علماً أنّ لعب دور ربة المنزل خطر لأنه قريب من لعب دور الأسرة السعيدة، والوقوع في غرام الطفلين، والرغبة في ماكس، والشوق إلى أمور لن تستطيع الحصول عليها قط. وكبحت صرخة ألم عالية كادت تنطلق من فمها. عليها أن تخرج إلى أشعة الشمس أو أي شيء آخر، أن تفكر في أمور تسعدها وتضع حداً لهذا الحنين السخيف. وعادت إلى الحديث بشيء من الصعوبة: «أحياناً، من الأفضل أن تصحب الولدين في نزهة فهذا يخفف عنهما».

الآن، عندما حان الوقت للإذعان، وجدت صعوبة في العثور على

الكلمات المناسبة. لكنها كانت قد عاهدت نفسها على أن تتمكن من ذلك بشكل ما. لن تدع ماكس يشك في أنها لا تريد أن ترحل.

- إذن، متى تصل المربية الجديدة؟ الليلة؟ هل هي من سيدني؟ هل هي قادمة بسيارة؟ يمكنني أن أرحل في أي وقت. لن تلحظ تقريباً أنني كنت هنا.

بدت التسلية على وجه ماكس ثم هز رأسه: «لديك مزايا كثيرة يا فوبي، إنما أن تمرّي مرور الكرام ولا يلحظك أحد فهذا صعب. كل ما فيك يسترعي الانتباه، سواء تعمّدت هذا أم لا».

- لا أظن هذا صحيحاً.

انفجر ماكس ضاحكاً: «ترين أن هذا ليس صحيحاً؟ ماذا عن ذوقك في الملابس، هذا أولاً».

- الملابس؟

آه، هذا! إنها تختار ملابسها من متاجر الملابس المستعملة غالباً، أو المتاجر الرخيصة عندما تتمكّن من ذلك.

- أعترف بأنني لا أرتدي ملابس الموظفات ذوات المناصب العالية. أنا لست واحدة منهن.

- القيثارة والشعار؟ ألا يلفتان الانتباه؟

مضت لحظة لم تفهم فيها ما يتحدث عنه. فهي ليست موسيقية! ثم نظرت إلى قميصها المقفل. ورغم أنه كان حائل اللون، إلا أن صورة القيثارة الكهربائية مع كلمة «عضني» واضحتان على الصدر فهزت كتفيها: «هذا الشيء؟ إنه هدية من عضو في فرقة موسيقية عرفته ذات يوم. لم أستطع أن أرفضه».

أخذ ماكس يتفحصه جيداً، فحاولت أن تصرف ذهنها عن ذلك بالنظر إلى أكياس البقالة في زاوية المطبخ. ولاحظت كيساً من الموز، وسألته: «هل أنت واثق من أنك لم تسرف في شراء الفاكهة؟ أرجو ألّا يتلف هذا الموز».

نظر إلى الموز بدوره: «اشتريته لتحضير أقراص الموز المقلية».

- ماذا؟ لكنني لن أكون هنا؟

كان الموز المقلي طعامها المفضّل، وماكس وكاترين يعلمان هذا جيداً. وقفت فوبي ثم سارت إلى كيس الموز. أتراه يريد أن يمنحها الموز كهدية رحيل؟ ثم خطرت لها فكرة أخرى فسألته: «هل المربية الجديدة تحب الموز المقلي أيضاً؟».

- ما من مربية جديدة.

وسار ليقف بجانبها قرب الأكياس وقال بصوت خشن: «ما من أحد سواك أنت والموز. ويمكنك أن تبقي فترة تسمح لك بأن تأكلي الكمية كلها».

انتعش قلبها. يمكنها أن تبقى فتساعد الطفلين وتستمتع... كفاني تنهداً، ولن أحلم بالمستحيل!

- ماذا حدث؟ هل أخافت سمعة الولدين جميع المتنافسات؟

لم تكن تعني ذلك. في الواقع، وجدتهما ولدين صغيرين غاية في النشاط والحيوية وطبيعيين للغاية. لقد فقدا والدتهما حديثاً ولم يعرفا ماذا يفعلان في محيطهما الجديد.

- لا، لا أصدّق ذلك. لا بد أنك لم تبحث جيداً.

- صدقيني، فقد بحثت وسألت وأجريت اتصالات هاتفية.

- أتريد أن تقول إنك أمضيت النهار بطوله تطوف بين الوكالات لتعود إلى البيت خالي الوفاض؟

في الحقيقة، أرادت أن تعتقد أنه يريد أن يحتفظ بها في بيته.

قال والإحباط في نبرته: «أجريت مقابلات عدة مع امرأة عجوز زمت شفتيها إلى أعلى، وامرأة بدينة أخذت تلهث عندما نهضت عن كرسيها. مربيات محطّمات أو غبيّات، صارمات أو نظاميات في ملابس ساذجة. لم ينجح الأمر. لم أشعر بالارتياح مع أيّ منهن، فتخلّيت عن المحاولة وأمضيت فترة بعد الظهر في مكتبي محاولاً أن أعمل، أو أن أفكر في ما عليّ أن أقوم به لحل هذه المشكلة. لكنني لم أنجح في أي من هذين الأمرين».

- فهمت.

إذن، بعد تلك اللقاءات مع المربيات غير المناسبات وفشله في التركيز على العمل، اشترى تلك الكمية من الموز وعاد بها. خرج ليحضر مربية جيدة مفضّلة حسب ذوقه ومتطلباته لكنه لم ينجح.

قالت له: «هل أنت بحاجة لبعض الوقت لتعالج المشكلة؟ أتريدني أن أبقى هنا حتى تجد مبتغاك؟ ربما عدة أيام؟ سأفعل ذلك».

وأضافت في سرها أنها تفعل هذا من أجل الولدين. وهذا ما تفعله مربية أطفال تشعر بالمسؤولية. وكانت على وشك أن تقول المزيد عندما لفت انتباهها ضوء القمر وهو يقع على عدد من الصناديق الضخمة. فسألته: «ما هذا كله؟».

- إنه هيكل للتسلق للصبيين. سأركّبه غداً.

لم تتوقع منه أن يفكر في امور كهذه. وقالت: «إنها فكرة حسنة، وطريقة ليفرغا طاقتهما بدلاً من أن يتلفا أثاثك ويملآ المنزل صخباً».

فقال مكشراً: «هذه هي الفكرة، كما أنني بحاجة إلى ما يشغلني بينما أفكر في ما عليّ أن أفعله بهما».

شيء ما دفعها لأن تقول له: «يمكنك أن تكون أباً رائعاً يا ماكس لو أنك تدع نفسك...».

أسكتها بنظرة غاضبة: «لا تخبريني بما يمكن أن أكونه أو لا أكونه أو يجب أن أكونه».

حسناً، الذنب ذنبها رغم أن اعترافها بهذا لا يجعل جوابه مقبولاً. لِمَ لا يستطيع أن يحبهما ويتقبل وجودهما بقربه، بدلاً من أن يبذل جهده ليبقيهما بعيدين عنه؟

أتراها تتساءل هنا عن ولديه أم عن نفسها؟ عن الولدين طبعاً! فقد حدّدت فوبي أسلوب حياتها منذ زمن طويل وهو لا يتضمن ماكس. مهما كان الشعور الذي أثاره فيها الآن، فهي ترجو أن تتخلص منه سريعاً.

- سأساعدك قدر إمكاني حتى تجد مربية. هذا هو المهم حالياً.

وعندما التفت ليواجهها، أضافت بابتسامة صغيرة: «فهذا ما جئت من أجله إلى بيتك».

وضحكت قليلاً فقط لتريه أنها غير مهتمة.

- شكراً يا فوبي! أقدر لك رغبتك في المحاولة.

لم تعرف إن كانت كلماتها قد صدمته، لكنه على الأقل لم يعقب عليها بل قال: «سيكون من المؤسف أن ندع الموز يفسد».

إذا كان ماكس يحاول أن يمزح، فأقل ما يمكنها أن تفعله هو أن تمزح بدورها، فمدت يدها إليه قائلة: «إلى وظيفتي كمربية مؤقتة إذن».

فأخذ يدها بيده قائلاً: «حتى يستقر الولدان».

فكرتهما عن الاستقرار لم تكن متماثلة تماماً. لكن فوبي أومأت موافقة على كل حال، ثم سحبت يدها من يده: «هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟».

قد لا يكون هذا هو الوقت المناسب، لكن متى سيكون هذا؟ فماكس في مزاج جيد الآن، وهما يحاولان الانسجام، والولدان غير موجودين لكي يسمعا ما يقولانه.

- ما الذي تريدين معرفته؟

- أريدك أن تخبرني عن أمهما.

أتراه أحبها؟ وهل كانت تحبه؟ وهل ما زال يحبها؟ أم أنها كانت كالأخريات؟ هل يتذكر شكلها؟

حدثت فوبي نفسها بأنها تريد أن تعلم، من أجل مصلحة الولدين، لكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً. أرادت أن تعرف شعور ماكس نحو أم ولديه. كما ارادت أن تعلم أي نوع من النساء كانت والدة ابنيه وعما إذا كانت ترعاهما إذا مرضا وتداوي ما يتعرضان له من خدوش.

بعد أن فكرت ملياً، تملكها الاشمئزاز من نفسها إذ أدركت أنها تغار من امرأة ميتة. امرأة كانت قريبة من ماكس ذات يوم، وبطريقة لن تحلم هي بها قط.

هل أنا مجنونة؟

لا بد أنها كذلك، لتفكر في علاقة كهذه. ماكس لا يبقى مع امراة واحدة، كما حذرت نفسها. وما كان لها أن تسأله عن والدة الطفلين. ما كان لها أن تتدخل في هذا الموضوع،لكنها بحاجة لأن تفهم مشاعر الطفلين. وهكذا، قالت تشرح له الأمر: «إذا كان عليّ أن أساعد جيك وجوش على تقبّل التغيير الذي حدث في حياتهما، فعليّ أن أعرف أولاً المزيد عن أمهما».

- كانت ماريلين تعمل كمحاضرة في جامعة. وصادف أنها كانت مولعة بالأحجار الكريمة خصوصاً تلك التي تبيعها شركة «مشاريع سوندرز».

توترت عضلة في فك ماكس.. وتملكها شعور بأنه لا يحب الحديث في هذا الموضوع، لكنه تابع قائلاً: «تعرفت إليها أثناء عرض خاص لمجوهرات صممت بحجر (الأوبال) الأسترالي».

لم يكشف حديثه شيئاً عن شعوره نحو «ماريلين». هل يعني هذا أنه لم يكن يهتم بها حقاً؟

- أظنها كانت رائعة الجمال.

خرجت هذه الكلمات من فمها قبل أن تستطيع منعها. وهز هو رأسه موافقاً بعدم مبالاة ليتابع: «كانت علاقتنا قصيرة. كانت امرأة عملية للغاية، لا تحب الالتزام أبداً. وفي نهاية زيارتها إلى سيدني افترقنا بشكل ودّي ثم نسيت كل شيء عنها حتى اتصل بي محاميها ذات يوم ليبلغني بموتها، وبأبوّتي لتوأم وبأن عليّ أن أحضر حالاً لأخذ الولدين».

ماريلين إذن، لم تكن سوى واحدة من كثيرات عرفهن ماكس. لكن الأمر كان سيختلف لو علم ماكس أنه رزق بولدين منها.

وأطلق ماكس زفرة طويلة: «كان الطفلان في رعاية مربية أحضرتها لهما ماريلين، لكنها كانت فتاة مراهقة تعتمد على أمها لتساعدها. لم

يكن الوضع مرضياً أبداً».

وتملك ماكس التوتر: «اكتشافهما أنني والدهما أحدث لديهما صدمة، لكن صدمتي لعدم اتصال ماريلين بي كانت أقوى. كنت أظنها تعرفني بما يكفي لكي...».

يبدو أنه فكر في إمكانية أن يقيما علاقة من نوع ما. وسألته: «هل هذا يعني أنك الوصي الوحيد عليهما»؟.

- نعم، ليس لماريلين أيّ أقارب وأنا الراعي الوحيد، كما ورد في هويتيهما أنني والدهما. ما من شك في أنني المسؤول عنهما.

يا لها من طريقة محزنة لعرض الوضع! والأمر المحزن أكثر هو أن ماريلين أخفت أمر الولدين. ولو لم تمت، لأمضى ماكس حياته كلها من دون أن يعلم أنه أب لولدين. قالت: «أنا آسفة يا ماكس».

- هذا غير مهم.

وبدا العنف على ملامحه لحظة لتعود فتلين، متحولة إلى عدم اهتمام ساخر: «كل ما يهمني الآن هو أن أبذل جهدي من أجلهما».

كيف يمكنه أن يوفّق بين ذلك وبين رغبته في أن يتركهما لمربية ترعاهما؟ وسألته: «أنا آسفة لسؤالي هذا، ولكن كيف ماتت ماريلين؟».

- في حادث اصطدام، لم يكن الطفلان معها حينذاك.

لم تشأ فوبي أن تعود إلى التفكير في هذا الأمر. يكفي ما عانته مشاعرها اليوم، وقالت: «أتمنى لك ليلة سعيدة يا ماكس، لقد تأخر الوقت وأنا واثقة من أن الولدين سيستيقظان مع الطيور في الصباح».

وعندما أرادت أن تخرج أمسك بذراعها: «شكراً يا فوبي لأنك وافقت على البقاء هنا حالياً».

بقي الكثير خلف هذه الكلمات: عداؤهما وانجذابهما إلى بعضهما البعض، حقيقة أن الوضع لن يكون سهلاً وأنهما يسيران نحو المجهول.

رفعت عينيها إليه ظناً منها أنها النهاية، لكن شيئاً ما في نظراته تغير واحنى رأسه. لا بأس، ستجري الأمور كما تقرأ في القصص. إنه يلاطفها، لكنها ستحاول جاهدة ألا تحوّل وجهها عنه مصدومة. وراحت تشجّع نفسها، ثم سمعت أنفاسه عندما عانقها بقوة. وأذهلتها المشاعر التي تملكتها وسمرّتها مكانها كما شلّت تفكيرها.

كانت يدا ماكس تمسكان بكتفيها تثبتانها في مكانها. لا عجب في تعلق النساء به رغم أنه من النوع الذي يتنقل من امرأة إلى أخرى. أذابها عناقه كما تذوب قطعة الزبدة في المقلاة. لما؟ أوه، لماذا فعل هذا؟ ولِمَ استمرّ في ذلك، حتى بعد أن ذابت عظامها؟

آه، ماكس هو من جعلها تشعر وكأنها عادت إلى الوطن وليس كاترين أو البلدة. لم تعلم من أين جاءتها هذه الفكرة. لكنها أنكرتها على الفور. لا يمكن ذلك. وفقدت تركيزها، وغمرتها الأحاسيس وأغرقتها.

إرتفعت أصابعه إلى ذقنها ليرفع وجهها نحوه وتملكها الجنون لحظة فأخذت تبادله العناق بكل مشاعرها، سرت السخونة في جسمها وأوشكت أن تحرقها لكن عقلها استفاق أخيراً ومعه كل الأسئلة الهامة. كانا سؤالين في الواقع وهما: ما الذي تفعله؟ ومع ماكس من بين كل الناس؟ وسلخت نفسها عنه وهي تشهق: «كلا...».

تملكها الفزع لاشتراكهما في هذا التصرف والضيق من سلوك ماكس. هل التفكير في ماريلين هو السبب؟ وهل جعله التفكير فيها يعانق فوبي؟ هل هو شعور بالذنب في غير موضعه أو ما شابه؟

كل ما تعرفه هو أنها جنّت للحظة عليها أن تتخلص من تأثير ماكس فيها. إنه جنون وغباء خالصان، وقد عادت إلى وعيها لحسن الحظ قبل أن تسوء الأمور أكثر. بدا ماكس ذاهلاً مثلها وتوترت ملامحه وهو ينظر إليها وأخذ يتنفس بصعوبة: «كان ذلك...».

وسكت وهو يتخلل شعره بأصابعه وكأن كل شياطين جهنم كلها

اجتمعت على رأسه.

وعاد فانتصب في وقفته ثم تنفس بعمق قبل أن يقول: «إذن ستساعدينا كمربية حتى أتمكن من الحصول على بديلة. وسأدفع لك الراتب نفسه الذي أدفعه للأخريات».

ذكر لها المبلغ وأومأت من دون أن تستوعب ما قال. عودتها إلى العمل جيدة لكن ليتها تتقبل التغيير والعودة إلى الطريق القويم بدلاً من التفكير في... عناق واحد!

أمال ماكس رأسه جانباً وتراجع خطوة ثم أخرى: «هذا حسن. عظيم، لقد حُسم الأمر إذن. هذا كل شيء... حُسم».

فرددت فوبي: «حُسم».

ثم أومأت كما فعل هو تماماً. كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة... لكنها قالت: «ستعود إلى العمل الآن أليس كذلك؟».

وضع يديه في جيبيه ثم أخذ يتأمل لوحة على الجدار: «نعم، إلى العمل».

هذا حسن، بإمكانهما أن ينسيا كل ما حدث، وهذا أفضل لأنها لا تستطيع أن تترك نفسها تنجذب إلى ماكس، خصوصاً عندما يترك هذا الأمر مثل هذا التأثير فيها. ستتجنبه في المستقبل قدر إمكانها، وستبقي نفسها مشغولة كما ستتجنّب التفكير فيه ورفع الكلفة بينهما. تتجنب مقارنة ماكس وولديه ومربيتهما بأسرة سعيدة.

يريد ماكس مربية تتفاضى راتباً، وهي موجودة. يمكنها أن تقبل أن هذه وظيفة مؤقتة، مجرد ترتيب عملي من دون مشاعر. يمكنها أن تقوم بذلك. وقالت: «حُسم الأمر الآن».

حاولت أن تجعل نبرة صوتها من دون حماسة لكنها فشلت تماماً، فقررت أن تهرب: «أراك لاحقاً».

قالت هذا وهربت.

٤ ــ مشروع أب

عند الصباح، كان ماكس عند وعده، فأعدّ مكان اللعب أثناء انشغال فوبي مع الصبيين وتقديم الفطور لهما. وعندما وقفت عند النافذة لترى ما يفعل، كان قد أنهى عمله ووقف يتفحّص ما فعله وعلى ملامحه أمارات التفكير.

على الأقل لم تكن عيناه مركزتين عليها. لم تستطع فوبي أن تمنع نفسها من التفكير في ما حصل بالأمس، وصممت على ألاّ تستسلم مرة أخرى. فكرت كثيراً في الأمر وتمنت ألاّ يتكرر هذا. ولكن إذا ما استحالت عاطفية، فمن الأفضل أن تسعى لأن تتمالك نفسها قبل أن يتنبّه ماكس لمأزقها.

صممت أن تبعد نفسها عاطفياً عنه وعن الولدين أيضاً. أنهت الطعام الذي كانت تتناوله، ثم تساءلت كم من الوقت سيمر قبل أن يلحظ الولدان ما فعله أبوهما في الحديقة هنا. وما هي إلاّ ثوانٍ حتى اندفعا إلى الخارج هاتفين فرحاً. هزت فوبي كتفيها باستسلام وهي تتبعهما إذ لم يكن أمامها أيّ خيار آخر. فوجئ الولدان بأبيهما فوقفا خلف ساقي فوبي.

نظرت فوبي إلى ماكس فلمحت ألماً واضحاً في عينيه لدى تراجع ولديه المفاجئ. ثم تكلم فتساءلت إن كانت قد تصورت ذلك. قال وهو يرفع العدّة عن الأرض ويضعها في الصندوق من دون أن ينظر مباشرة إلى أي من الولدين: «مرحباً لقد أحضرت لكما هذه اللعبة

لأنكما اثنان. فأرجو أن تستمتعا بها».

لم ينظر ماكس إلى فوبي على الإطلاق، وهذا أفضل في رأيها. لماذا تشعر إذن بخيبة أمل؟ لأنني امرأة مجنونة وحمقاء. نعم هذا هو السبب، أنا مجنونة تماماً لانجذابي إلى رجل غير مناسب لي.. أتراها منجذبة إليه؟ حتى بعد تصميمها على أن تستأصل مشاعرها نحوه من كيانها؟ على أيّ حال، هل من تفسير آخر لاهتمامها المستمر وغير العادي به على الرغم من عدم التناسب بينهما؟

حدثت نفسها بأن عليها أن تركز على سبب وجودها هنا، وألاّ تنسى أنها جاءت لتعمل.

بقي الطفلان خلف ساقي فوبي. ماذا على المربية أن تفعل الآن؟ وأوشكت أن تقترح عليهما أن يشكرا أباهما على هديته هذه، فهذا على الأقل أفضل من عدم التحدّث إليه. لكن الولدين فاجآها حين خرجا من حيث كانا متواريين ليتشبثا بساقي أبيهما.

احتضن جوش ساق أبيه بعنف قائلاً: «شكراً يا بابا».

ثم أسرع نحو هيكل التسلق ليتفحصه وأضاف: «هذا أعجبني».

هتف قلب فوبي لما فعله جوش، بينما بقي جيك مدة أطول محتضناً ركبتي ماكس، ليرفع بعدئذ نظره إلى وجه أبيه وقد بدا على ملامحه الرجاء والجد في آن: «هل يمكننا أن نحتفظ به؟ هل سنقيم هنا؟».

رباه... هذا لا يحتمل. تلهّفت لأن يستجيب ماكس بالشكل الصحيح. وهفا قلبها إلى الصبي الصغير وتمنت في داخلها أن يحمله ماكس بين ذراعيه ويخبره كم يحبه ويريده وأنه لن يدعه يذهب أبداً. فيجعله يشعر بالاستقرار حين يعلم أن ثمة من يحبه ويريد أن يعتني به.

قال ماكس بصوت أجش: «يمكنكما الاحتفاظ بها. لن يأخذها أحد منكما».

ربت على رأس الصبي ثم تراجع ببطء فتملك فوبي خيبة أمل

وأدركت كم ترغب في أن يمنح ماكس ولديه أكثر من هذا، أن يقدّم لهما مزيداً من الرعاية، فيكون أفضل مما كان والداها معها.

لحسن الحظ أنّ جيك لم يلحظ أي خطأ: «أنا سأصعد عليه».

ولحق بأخيه ثم وقف ينظر إلى فوبي: «وأنت أيضاً».

فقالت فوبي بابتسامة مرغمة: «لا بأس سأصعد».

وصعدت خلفه: «هذا حسن. ماذا سأفعل بعد ذلك؟».

أخذ الألم الحارق في داخلها يهدأ تدريجاً: «هممم... هل عليّ أن أتسلّق هذا؟ أصعد إلى الداخل؟ أحبو داخل النفق؟».

وتظاهرت بأنها تدخل إلى النفق: «آه رباه... لا أظن أنّ حجمي مناسب للدخول».

وأخذت تلوي مؤخرتها لتؤكد قولها هذا.

وأخذ الصبيّان يضحكان: «أنت كبيرة جداً».

وقال الثاني: «نعم، إنه يناسبنا نحن».

- إذن، عليكما أن تريانى ما بإمكانكما أن تفعلاه.

وحاولت أن تلوي جسدها لآخر مرة لكي تتمكن من الدخول لكنها رفعت رأسها بعنف ليصطدم بالسقف. كان وجهها ملتهباً وجسمها كله أيضاً وما أن انتصبت واقفة حتى سمرّها ماكس في مكانها بنظراته: «بالنسبة إلى الليلة الماضية...».

ماذا؟ أهذا هو الموضوع الذي تريد أن تتحدث عنه قبل أي موضوع آخر؟ وهزت كتفيها لا تريد أن تسمع: «انسى ذلك. وعدتك بأن أنسى كل شيء وقد نسيت».

لم يكن ماكس يعني شيئاً حين عانقها على كل حال.. وأضافت قائلة: «لكنني أريد أن أتحدث عن ولديك».

نطقت بهذا التحدي بهدوء كيلا يسمعها الولدان: «كان عليك أن توضح لهما بأن عليهما ألاّ يقلقا على مستقبلهما، وأنك تحبهما وسترعاهما بشكل جيد».

- سيتلقيان الرعاية. هذا هو الغرض من رغبتي في الحصول على مربية جيدة.

- المربية هي مجرد موظفة.

الحقيقة تجرح أحياناً لكنها تابعت تقول: «ولداك يحتاجان إلى حب غير مشروط من الرجل الذي كان علة وجودهما. وهو أنت، يا ماكس. إن رفضك أن تكرس مشاعرك لهما هو هجر لهما».

- لا تتحدّثي عما لا تفهمينه يا فوبي.

وأشار إليها بأن تتبعه ليبتعدا عن مكان اللعب ثم أردف: «أظنني أوضحت لك بأن عليك أن تحتفظي بآرائك لنفسك في هذا الموضوع».

تبعته وأفكارها عالقة في ما تريد للولدين. يمكنها أن تفكر لاحقاً في ما تريده لنفسها، ثم ما لبثت أن انتبهت لماكس فقالت له: «لا أظن أن بإمكاني أن أدع الموضوع جانباً».

فقال بفروغ صبر: «حاولي. وانظري إن كان بإمكانك أن تركزي ذهنك على هذا. طلبت من «برينت» أن ينقل كمية من الرمال ليلعب الولدين. كنت أرجو أن تقترحي علينا أفضل موضع لكومة الرمال».

فكرت فوبي في أن تعود إلى موضوع الطفلين، ثم قررت أن تدع الأمر عند هذا الحد الآن، فعليها أن تكافح يوماً آخر.

وأجابت: «من الأفضل أن تكون الرمال قريبة من وسائل اللعب الأخرى، فيصبح بالإمكان مراقبة المكانين في الوقت نفسه».

وما أن قالت هذا حتى سمعت صوت شاحنة تقترب. وسمعها ماكس أيضاً فأومأ: «يمكنك أن تخبري «برينت» أين ينزل الرمل. سأغتنم أنا الفرصة وأذهب إلى مكتبي. لا أريد أن يزعجني أحد».

فوجئت فوبي: «ماذا لو أمضيت بعض الوقت مع ولديك؟».

لكن ماكس لم يسمعها وهو يبتعد أو تظاهر بأنه لم يسمع. وبقيت واقفة تشتعل غضباً في داخلها، متمنية لو تختلف الأمور، شاعرة

بالإحباط وهي تتمنى لو تغيّر عقل ماكس العنيد.

سألها جوش: «أين الرمال؟».

وهتف به جيك: «انظر ما أكبر هذه الشاحنة».

لا بأس، لا أريد أن أفسد هذه اللحظة بالنسبة إليهما فقط لأنني مجنونة بأبيهما. عليّ أن أتذكر أنني هنا من أجل الطفلين وعليّ أن أبذل جهدي لأجلهما فأكون بهذا قد قمت بواجبي. صحيح أنا هنا بشكل مؤقت، لكنها جاءت من أجل الطفلين. هذا لم يتغير... لكنها تريد أن تهزمه برأيها في تربيتهما.

- حسناً يا شباب هل بإمكان أي منكما أن يخمّن ما أحضره برينت البستاني لكما؟

لم تعبأ فوبي بأن تذكر لهما أن الرمال هي هدية والدهما لهما فلتدعه يخبرهما بذلك بنفسه. هذا إذا أزعج نفسه بتخصيص بعض الوقت لهما.

عندما أدرك الطفلان الغرض من هذا المشروع اندفعا إلى اللعب فاستطاعت فوبي أن تهدأ قليلاً. راحت تشرف على نشاطهما وحيويتهما، وهي تتعرّف إلى «برينت» البستاني الذي كان يفرغ الرمال في المكان الذي حددته له. ورغم مظهره كشاب ناضج، إلا أن الحياء بدا جلياً عليه. وعندما ذكر أنه أنهى دراسته السنة الماضية، لاحظت لوحة التسجيل المؤقت على الشاحنة وأدركت السبب. فهو وعلى الرغم من مظهره الناضج، لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. وسألته: «ألديك أسرة تعيش على مقربة من هنا، يا «برينت»؟ أخوة، أخوات، والدان؟».

بدت السعادة على البستاني وهو يتحدث عن أسرته التي يعيش معظم أفرادها في سيدني أو ضواحيها.

أخذت فوبي تصغي وتومئ، مستغلة الوقت في محاولة صرف ذهنها عما تشعر به من غضب وكدر من ماكس.

- بإمكانهما أن يلعبا بالرمال الآن.

قاطع صوت برينت أفكارها. فالتفتت لترى أن حمل الرمال أصبح على الأرض فعلاً. ابتسمت لجيك وجوش اللذين وقفا ينتظران، مليئين بالأمل وقد بدا عليهما الاستعداد للاندفاع بحيوية غير متوقعة، ثم سألتهما: «هل سمعتما؟ يمكنكما أن تلعبا الآن على الرمال».

اندفع الولدان إلى الأمام هاتفين. يبدو أن المفاجآت هي ميزة هذا النهار وضحكت فوبي. لم تستطع منع ضحكها هذا. بديا في الواقع مستمتعين للغاية ما جعلها تقرر أن تلتحق بهما فخلعت نعليها وسرعان ما غاصت قدماها في الرمل. عاد برينت إلى شاحنته ذاهباً إلى شأنه، وما أن غاب عن النظر حتى برزت سيارتان من الشارع الجانبي وانتقلت فوبي إلى حافة كومة الرمال مقطبة الجبين. من هم القادمون وماذا يريدون؟

خرج ماكس من البيت واتجه نحوها فافترضت أن الزيارة مرتّبة معه.

- هذا حسن، لقد وصلا.

وجاء ليقف بجانبها منتظراً توقف السيارتين. هل في نيته أن يجتمعوا حيث هي؟ لكن قربه منها جعلها تشعر بالشوق وبذلت جهدها كيلا تبتعد عنه. وعندما رفعت بصرها إليه، لاحظت خطوطاً من التوتر حول فمه. هل سيبقيان متوترين بهذا الشكل بعد أن تجرأت على أن تقترح عليه أن يقوم بالعمل الصواب ويلعب دور الأب؟ كان لتوترها هذا جانبه العاطفي أيضاً. فقد شعرت بلهفة لأن ترتمي في أحضانه لكن هذا ليس شعوراً حكيماً في ظرف كهذا. وصدر عنها صوت هو ما بين الآهة والشهقة فنظرت بسرعة إلى ماكس لترى إن كان قد لاحظ هذا. استقر نظره عليها بتصميم غامض ثم أدهشها بأن مدّ يده: «هيا بنا يا فوبي».

كانت نبرات صوته حذرة ومتماسكة وهو يتابع: «من الأفضل أن

تنفضي عنك الرمال لتتمكني من تفحص البضاعة».

- ما... ماذا؟

ظنت للحظة أنه يدعوها لتفحصه هو ثم أدركت أنه يشير إلى السيارة الصغيرة التي تتبع السيارة الأولى في الدخول.

تملكها الاضطراب والارتباك لكنها تشبثت بيده لتحافظ على توازنها وهي تنفض قدميها من الرمال، شاعرة بالزهو لإمساكها بيده. لا تستطيع أن تجعله يشعر بمبلغ تأثير هذا فيها.

لكن هذا لم يمنع تأثير هذه الملامسة البسيطة ليده.

أخذت توبخ نفسها، تقنعها بأنها مجرد أنثى أخرى بالنسبة إليه، وكان عليها أن تدرك ذلك منذ زمن طويل. سألته: «ماذا عن الطفلين. هل أحضرهما معنا؟».

- لا سنكون على مقربة منهما. دعيهما حيث هما.

تركت يد ماكس وابتعدت عنه قليلاً لكن هذا لم يدم، لأن ماكس عاد فوضع يده على أسفل ظهرها ليقودها نحو السيارتين... وإلى الرجلين الواقفين بجانب السيارتين بابتسامتين عريضتين.

- لماذا كل هذا؟

وأشارت إلى السيارة الصغيرة التي كانت محط اهتمام ماكس. كانت سيارة صغيرة، حائلة اللون، ولعلها كانت يوماً ما حمراء، وقد وجدتها فوبي غاية في الظرف. وأجابها ماكس: «امنحيني دقيقة ثم أشرح لك كل شيء».

فقالت: «لا بأس».

هل كان ماكس محمرّاً قليلاً عند عنقه وأذنيه؟ هل هذا توهج في وجنتيه؟ وقبل أن تجد الجواب، ابتعد عنها. وبعد تبادل كلمات قليلة مع الرجلين صافحهما ثم ابتعد عنهما ليتمكنا من الابتعاد بالسيارة الأكبر حجماً. أثناء الصمت الذي تلا، كان صوتا الولدين المبتهجين أثناء لعبهما على الرمال يداعبان سمعها: لِمَ هذا كله؟

- تعالي إلى هنا يا فوبي.

فتح ماكس باب السيارة وأشار إليها لتصعد: «اصعدي وقولي لي ما هو شعورك».

دخلت فوبي فشعرت بالجوّ العائلي للسيارة يلفها. ورغم تصميمها على ألّا تدع الذهول يتملكها أدارت عجلة القيادة برفق. ما أجمل قيادة هذه السيارة! كانت من الصغر بحيث يمكنها ركنها على طابع بريد كما انّ الاستدارة بها سهلة.

يمكنها أن تقود السيارات الصغيرة بشكل جيد جداً في الواقع وقد أثبتت ذلك حين استأجرت واحدة في فترة نادرة من رخائها المادي وخرجت بها إلى الطريق.

عندما جلس ماكس في المقعد المجاور التفتت تواجهه متسائلة وقد تملكها توتر بالغ. لكن منظره وركبتاه تصلان إلى ما دون إبطيه أضحكها.

- أوه، يا ماكس، مظهرك يدعو للسخرية.

فقال ساخراً لكن من دون غضب: «شكراً».

ثم أغلق الباب خلفه وساد الصمت من حولهما.

كانت لا تزال ترى الولدين من خلال الزجاج الأمامي، لكن بدا عليهما أنهما في عالم آخر، بينما بقيا هما في هذا العالم المشبع برائحة السيارة القديمة وجسد ماكس الذي أدفأته الشمس.

إن مالت إلى اليسار قليلاً لاحتكّ كتفاهما وهي ترغب في ذلك الاحتكاك أكثر مما ينبغي. وحدثت نفسها بأن هذا نتيجة الخطأ الذي ارتكبه ماكس معها حين عانقها الليلة الماضية.

- جربي أجهزة التحكم.

خشونة كلماته طردت أحلام اليقظة هذه فأطاعته من دون تفكير. ماذا حدث لها على أي حال؟ ماكس لا يجلس هنا متلهفاً للمسة منها.

- هذا سهل أليس كذلك؟

ومال ماكس إلى الأمام ربما ليقول شيئاً آخر.

لن تعرف فوبي قط كيف حدث هذا. فقد حركت جهاز السرعة مرة أخرى ثم شهقت حين احتكت يدها بفخذه الصلب، فسحبتها وكأنه أفعى لسعتها، ورفعت نظراتها إلى وجهه. بدا فكه متصلباً في خط واحد. وقالت متلعثمة: «إن... إنها سيارة جيدة..! أنا واثقة من ذلك. لكنني لم أفهم ماذا ستفعل بها، ولِمَ تريدني أن اراها».

نظر إلى وجهها لحظة متفحصاً ثم هز رأسه: «الأمر بسيط. ستحتاجين للتحرّك أثناء رعايتك الولدين وهذه ستسهّل الأمر عليك».

لكن لماذا؟ إنه مجرد أسبوع! لكن أي مربية أخرى ستحل مكانها ستحتاج إلى التنقل هي أيضاً.

- أنا واثقة من أن هذه السيارة ستكون مفيدة. أين وجدتها؟

- آل ماتيوس هم جيراني الجدد بعد أن اشتروا مزرعة «كونيللي». لاحظت هذه السيارة ففكرت في... فيها اليوم ووجدت أنها ستفيدنا... إنها سيارة رخيصة للغاية.

اتسعت ابتسامة فوبي رغماً عنها: «كيف رتبت أمورها بهذه السرعة؟».

زمّ شفتيه وأجاب: «كل ما احتاجه الأمر هو اتصال هاتفي. إنهم أناس طيبون، ونحن نساعد بعضنا بعضاً قدر الإمكان».

- سألته: «ألا تظن أنّ هذا مضحك نوعاً ما؟»

وعندما رفع حاجبيه متسائلاً أشارت بيدها إلى مبلغ ما تبدو عليه هذه السيارة الصغيرة من الإنهاك، متابعة: «حتى لو أخذنا المربية بعين الاعتبار، لا يمكنك أبداً أن تعتبر هذه كسيارة ثانية. عاجلاً أم آجلاً ستضطر لأن تقودها أو تركب فيها وأنت بالكاد يمكنك أن تجلس في داخلها. عليك أن تحضر سيارة أكبر حجماً تناسبك أكثر».

قال بمرح وعدم اهتمام: «يمكن لكاترين أن تقودها هي أيضاً

عندما تتواجد هنا».

قالت ببساطة: «لكن كاترين تفضل السيارات الفسيحة أيضاً. هل نسيت؟»

وأبعدت ساقها عن ساقه لكن لتزداد إحساساً بقربه عندما مدّ يده وأخذ يعبث بلوحة أزرار القيادة. وتابعت تقول: «ما كانت كاترين لتقود سيارة كهذه على الإطلاق».

عدّل ماكس عداد الزيت، ثم عاد يجلس في مكانه قائلاً: «أظن إذن أن عليك أن تتقبلي ما قلته منذ البداية وهو أنّ السيارة ستنفعك في رعاية ولديّ. وعندما تذهبين، ستنفع المربية التالية. ولهذا اشتريتها».

- لا بأس، سأبذل جهدي كيلا أحطمها قبل أن يحين وقت تسليمها إلى شخص آخر.

- هذا حسن.

ونزل من السيارة بينما بقيت هي تعالج قبضة الباب.

- سألتحق بك وبالولدين لتناول الغداء معاً. أما الآن فلديّ عمل.

وتمتمت متذمرة: «وسأبقى أنا هنا ألعب».

* * *

مرّت الأيام واشتاق ماكس إلى مكتبه. أراد أن يكون في سيدني حيث يدير أعماله وينجح في اكتساب زبائن جدد، أراد أن يشعر بعض السيطرة على بعض جوانب حياته.

لكن حتى موظفي مكتبه يبدوا وكأنهم متحدون ضده.

المشكلة هي أنهم مدرّبون احسن تدريب بحيث اكتشفوا أن بإمكانهم القيام بالعمل من دونه. يمكنه إذا شاء أن يكتفي بحضور اجتماع مجلس الإدارة مرة كل أسبوعين، فيما يستمر العمل في الازدهار من دونه.

إدراكه هذا ضايقه إلى أقصى حد. إنما مازال لديه مشروع «دانفرز» بين يديه. يُفترض أنه أمر مهم رغم تعقب «فيلسيتي دانفرز» له ككلب

بوليسي. . . هذا الوضع لم يكن ممتعاً أبداً. كل ما أراده ماكس هو مدخل إلى «مخازن دانفرز العالمية»، ما يشكل إضافة حسنة إلى الاتفاق الذي وقعوه على المستوى المحلي. لسوء الحظ، يبدو أن لفيليستي رأي آخر. قد رأى ماكس برنامجها من قبل، فهي تريد رصيده في المصرف ونفوذه المرتبط بعمله واسمه. لكنها لن تحصل على أي من هذا، وهذه حقيقة سوف تُرغم على تقبّلها في النهاية. أدرك أن خروجه معها خطأ ما جعله يمتنع عن ذلك بعد عشائين معاً. حسناً، ستفهم ذلك في النهاية. ونبذها من ذهنه وقرر أن يخرج ليرى ولديه والمربية. كان يحاول البقاء بعيداً عنهما غالباً وهذا حسن من كافة النواحي فما من فائدة من إقامة علاقة مع ولديه فيما هو سوف سيتخلى عنهما عاجلاً أم آجلاً. من الأفضل ألّا يمنحهما الأمل منذ البداية. مع هذا، عليه أن يوليهما شيئاً من العناية.

أما فوبي فكان عليه أن يستبدلها بأخرى من قبل. وهو لم يستطع أن يفهم لما لم يبذل جهداً أكبر ليفعل هذا. لعله لم يشأ أن يزيد من معاناتهما، لكن حياتهما ستضطرب عندما يحدث التغيير، مهما حاول أن يؤجل ذلك.

من المؤكد أنه لا يريد لفوبي أن تبقى هنا خصوصاً وأنّ وجودها لا يفيد سوى في إثارته من كافة النواحي. إنه يرغب فيها وهذا الشعور لم يهجره رغم محاولته تجاهل ذلك، كما أنها ما زالت تزعجه.

تأوه ماكس ثم استدار حول زاوية البيت. المنظر الذي طالعه صدمه: مرشة للماء وسط المرجة الخضراء، وشمس العصر تعكس أشعتها على المياه فتصبغها ألوان قوس القزح بينما ولداه يقهقهان ويركضان في الأنحاء، وفي أيديهما مسدسات ماء صغيرة. كانت فوبي ترتدي ثوب سباحة هو أكثر ما رأه ماكس في حياته رمزاً للذوق السيء، وهي تقفز على المرجة بينما البستاني ينظر باسماً بجرأة وهو يتشاغل بتسوية تعريشة من النبات المتشابك. بدا واضحاً أن البستاني

يغازل المربية، وإلا لِمَ هذه الابتسامة العريضة المعجبة تلك؟ لا عجب في أنها. . . وعجز ماكس عن العثور على الكلمات التي يمكن أن تصف تأثير تينك الساقين الطويلتين اللتين صبغتهما أشعة الشمس بالسمرة. بدت وكأنها في بيتها، هنا في حديقته، وكأنها من سكان المنزل وقد نشأت هنا لتبقى على الدوام. يا لها من فكرة غريبة وسخيفة! لم يكن لديه فكرة عما أثارها لكنه يعلم ما الذي أثاره هو.

قال صارخاً بلهجة اتهام، ما جعل الصمت يسود المكان: «ماذا تفعلين؟ أليس لديك أيّ انضباط؟».

رفع برينت حاجبيه ثم حمل أدوات عمله وأسرع مبتعداً، وهو يتمتم ببعض الاعتذارات.

أخذ الولدان يحدقان في والدهما برزانة، وقد أسدلا يديهما بمسدسات الماء إلى جانبيهما. بدا أنهما يريدان أن يهربا هما أيضاً، لكنهما لم يجرؤا على ذلك فيما قالت لهما بصوت بالغ الرقة: «لم يكن يعنيكما يا عزيزيّ. إذا شئتما يمكنكما أن ترشا الماء من مسدساتكما على كل النبات. فالنبات بحاجة إلى المساعدة ليبقى حياً ونضراً في هذا الجو الحار».

أومأ الولدان برزانة ثم ذهبا بعيداً لكي يرشا الماء على الورود بجانب الشرفة.

عندما ابتعد الطفلان عن مرمى السمع، استدارت فوبي إلى ماكس ويداها على وركيها متحدية وهي تقول بصوت خافت: «لِمَ هذا كله؟ أفزعت الولدين بصراخك هذا».

شعر ماكس بشيء من الندم، لكن من المذنب هنا الذي اضطره للصراخ؟ وقال: «لم أكن أوجه سؤالي إلى الولدين كما تعلمين جيداً، بل إليك أنت. لم أر في حياتي مثل هذا العرض المفزع، وأرجو ألّا أرى شيئاً كهذا مرة أخرى».

- اتهمتني بأنني عديمة الانضباط. أرى أن عليك أن تفسر كلامك هذا.

وحملت المرشة إلى بقعة من الأرض بقربه حيث أخذت ترشها بالماء وترشه هو معها.

- كنت أساعد ولديك على أن يستمتعا باللعب في يوم حار وغير مريح.

أمسك ماكس بذراعها يبعدها عن الرشاش، فكلامها جعل مزاجه يغلي. وبذل جهده ليبقى صوته منخفضاً: «بدوت حمقاء في الساحة، شبه عارية أمام البستاني أو أمام الولدين. أنا لا أعتبر هذا عملاً لائقاً».

حملقت فيه قائلة: «حمقاء؟ ومع برينت؟ وكأنني استعرض نفسي بابتذال؟ هل هذا ما عنيته بكلامك؟».

لم تنتظر منه أيّ ردّ بل اندفعت متابعة: «هل أنت أعمى، يا ماكس؟ أم أنك مريض عقلياً؟ هل أنت بحاجة إلى علاج؟ لأن هذا هو التفسير الوحيد المعقول الذي يمكنني أن أفكر فيه وأنا أراك تتهمني بكل هذا الهراء».

- أنت تعرضين قدوة سيئة للولدين.

وعاد اهتمام ماكس إلى جسدها شبه العاري إنما من دون عجلة هذه المرة.

- هذا اللباس غير محتشم، كما أن تصرفك غير محتشم أيضاً.

وأرغم اهتمامه على التحوّل إلى أعلى، إلى الشفتين في الوجه الغاضب، وانحبست أنفاسه، ثم أدرك أنه مازال قابضاً على ذراعها: «كنت تتباهين بعرض نفسك أمام البستاني، بينما ولداي البريئان ينظران».

ضحكت فوبي، إنما من دون بهجة، وسحبت ذراعها من قبضته.

- أولاً يا ماكس، ما من خطأ في ما ألبسه فقد رأيت فتيات ترتدين أقل من هذا بكثير.

وعندما هم بالجواب، رفعت يدها: «كلا. دعني أنهي كلامي أولاً».

وهزت يدها أمام لباسها تدعوه لكي ينظر إليه، قائلة: «أنظر، هل ترى هذا القماش؟ أنه بسماكة بطانية من الصوف. أنظر يا ماكس هذا اللباس مصنوع من قماش يعود إلى أكثر من ثلاثين عاماً وهو أكثر حشمة من الفساتين القصيرة التي تلبسها النساء في المجتمعات متى وأينما شئن ومن دون أن يهتم بذلك أحد».

وعندما نظر رأى أن كلامها صحيح...

ولكن كيف تمكنت من أن تبدو مهلكة ومثيرة وشهوانية؟

- أنا أعتذر.

لم تخرج هاتان الكلمتان بسهولة من فمه. وكان من الحماقة أو عدم التعقل بحيث اندفع إلى الأمام حتى أصبح بإمكانه أن يرى القطرات تنحدر ببطء نحو نهديها. وإذا به يمد إصبعه يوقف هذا الإنحدار قبل أن يدرك ذهنه تماماً ما يفعل.

تراجع على الفور وقد تملكه الذهول لفعلته هذه، ولشهقتها المجفلة، وللطريقة التي استجاب فيها جسده بهذه السرعة لملامسته لها.

- بغض النظر عن الدافع الحقيقي الذي جعلك ترتدين هذا اللباس، ما زلت تتباهين به. أرجو أن تتوقفي عن إغراء برينت بهذا الشكل، وأظن أنه من الأفضل في المستقبل أن ترتدي ثياباً أكثر حشمة عندما تلعبين بالماء مع الولدين.

أومأت وقد احمرت وجنتاها غضباً: «بكل تأكيد. في أول فرصة سانحة سأركض إلى المدينة واشتري ثوباً يمتد من عنقي حتى أخمص قدميّ. هل سيعجبك هذا وهل أشتري قبعة سباحة؟ أم ان شعري من عدم الجاذبية بحيث لا يمكن أن يثير شهوة أي رجل؟».

- ها أنت تصرخين بسخافة.

لقد شعر بأنه سخيف هو أيضاً. جعلته يشعر بأنه سيء بينما لديه كل الحق في أن يغضب منها. كانت تلعب في ساحة الدار من دون

ملابس كافية، فإذا ما أثرت فيه بهذا الشكل، فسيشعر كل رجل على وجه الأرض بالشيء نفسه لو رآها.

- أنا سخيفة يا ماكس؟

ورفعت أنفها في الهواء واستدارت: «ربما عليك أن تفكر في معنى كلمة مثيرة في وقت ما».

واجتازت ساحة الدار ببطء وتشامخ لا يحسنهما سواها بقدميها الحافيتين ولباس السباحة القبيح المزين بالأزهار الذي تلبسه.

تأوه ماكس لكنه لم يستطع أن يحوّل نظره عن قامتها المتمايلة بشكل ممتع.

إنها تتباهى بنفسها، لقد أدرك ماكس معنى ما رآه.

٥ ــ المربية الأعجوبة

- ماذا تفعلين؟

قالت فوبي وهي تنظر من فوق كتفها: «أجهز الولدين لمغادرة المنزل. ماذا تراني أفعل؟»

وعادت باهتمامها إلى عقد رباط حذاء جيك. لو استمرت في النظر إلى ماكس لتملكها الإغراء في أن تتحداه. لكن إلى أين سينتهي بهما هذا سوى إلى مزيد من المتاعب؟

- أنت لم تذكري أنك خارجة؟

بدا الاستنكار واضحاً في صوت ماكس. ولم يكن عليها أن تنظر إليه لتسمع ذلك، أو تتصور لؤم التعبير الذي يكسو ملامحه. وعاودها غضبها منه بسبب حادث لباس البحر، وهذا لا يعني أنها هدأت كثيراً في الساعات الأربع وعشرين الماضية، لكنها حاولت ذلك.

أنهت عقد رباط الحذاء وطلبت من جيك الذهاب إلى المرحاض بعد أن كان جوش قد سبقه إلى هناك ثم ابتسمت لماكس بشكل يدل على التنازل وكرم الأخلاق.

خفقت بأهدابها لأنها تعلم أن هذا يضايقه: «ألم أذكر لك أننا سنخرج؟ عجباً، كيف نسيت؟ أنا أظن أنه من الأفضل أن أخبرك الآن».

ضاقت عينا ماكس وقال وقد تصلب فمه بحقد وعناد: «لا داعي للعجلة. لا أريد أن أستعجلك أو أتدخل في جدول أعمالك. هذا إذا

www.elromancia.com

كنت تفهمين معنى شيء كهذا».

قالت بحدة: «الجداول لها مكانها الخاص».

أيظن هذا الرجل أنها وجدت من فراغ؟ أتراه يظن أن العناية بالأولاد، وتنظيم وجبات الطعام وأوقاتها، وأوقات القيلولة لا تعني القدرة على جدولة الأعمال بشكل جيد؟

- هل لأنني لا أهرول دوماً لمراجعة جدول مكتوب يعني أن ليس لدي فكرة عما أفعله؟ يمكن للشخص أن يحتفظ بمثل هذا النوع من الخطط في ذهنه، كما تعلم.

جالت عيناه على قمة رأسها، ثم شخر ساخراً: «أخشى أن القيام بذلك قد يكون خطراً للغاية في حالتك».

- حذار...

هل عليه أن ينظر إليها بهذا الشكل؟ ما هي هذه الجاذبية في شعرها على أيّ حال؟ لقد رتبته قدر إمكانها. وقالت مرغمة نفسها على الابتسام: «أنت تتحامل عليّ».

- أنا لا أتحامل عليك.

لا يتحامل؟ لكن الاستخفاف في التواء شفتيه يقول شيئاً آخر. وقالت: «عندما كان ولداك يعيشان مع أمهما، اعتادا الذهاب إلى مركز رعاية يومية. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟».

- لا.

حتى أنه لم يعتذر لعدم معرفته بذلك. وشعرت بسخط من أجل الولدين... لكن عليها أن تكون حذرة... وأن تلتزم بالموضوع الذي يتحدثان عنه.

- حسناً، لقد أخبراني بذلك. سآخذهما لزيارة مركز رعاية في «وينتويرت فولس». يبدو أنه جيد. أنت اشتريت السيارة لكي أجول فيها معهما.

ونظرت إليه متحدية، فقال: «مركز رعاية؟ جيد من أيّ ناحية؟».

وتقدم إلى الأمام بحركة سريعة جعلتهما يقفان وجهاً لوجه وعلى مسافة أشعرت فوبي بعدم الارتياح.. آه، لا بأس. كان من القرب منها بحيث أصبح بإمكانها أن تلمسه و... وملأها الغيظ حين تملكتها الرغبة في أن تلمسه. وأجابت: «جيد بالنسبة إليهما يعني أن ثمة مركز رعاية يمكنهما الذهاب إليه».

تضايقت من ذهولها وحملقت فيه مضيفة: «صبيّان مثل جيك وجوش بحاجة إلى تنشيط للذهن، وهذه الخطوة مقدمة جيدة. وأنا واثقة من أنك فهمت الفكرة».

فقال ماكس وهو يبتعد: «كلا».

سيغادر الغرفة في أيّ لحظة. أيظن حقاً أن كلمة لا كافية لمناقشة الموضوع؟

- انتظر.

كان عليها أن تمنع نفسها من التشبث بذراعه. وبدلاً من ذلك عضت على شفتها السفلى وانتظرت منه أن يلتفت إليها. وعندما فعل ذلك هبّت في وجهه مرة أخرى: «ماذا تعني بقولك (لا)؟».

- أعني (لا) للخروج عصر هذا النهار و (لا) لمركز رعاية. عندما يحين موعد ذهابهما إلى المدرسة فسيذهبان، وهما ليسا بحاجة إلى أي شيء آخر قبل ذلك.

وأخذ نفساً عميقاً ثم عاد فزفره ببطء: «ثمة الكثير لنقلق بشأنه من دون أن...».

- لا يمكنك أن تحرمهما من هذا.

ما الذي يجعله يتصرف بهذا الشكل؟ لم تستطع فوبي أن تصدق أنه، وبكل بساطة، يرفض مثل هذا الأمر المفيد لولديه. وقالت بسرعة واضطراب: «سبق وأخبرتهما، والإثارة تتملكهما الآن. كانا يذهبان إلى مركز رعاية في حياة أمهما ما منحهما نوعاً من الاستقرار، وحيث أن بإمكانهما أن يفعلا ذلك الآن...».

- لا يهمني ما كان لديهما في حياة أمهما.

شهقت. وزمّ هو شفتيه ثم رفع بصره إلى السقف، وكأنه يطلب معونة إلهية: «ما أعنيه هو أنني المسؤول عنهما الآن. من الطبيعي أن يحتاجا لإطلاق كمية معينة من الطاقة».

- بالضبط، إنهما بحاجة إلى استخدام طاقتهما، ومركز الرعاية جيد إذ يسمح لهما بأن يتعرفا إلى أولاد آخرين من سنهما. ظننتك ستقفز فرحاً لهذه الفكرة التي ستشغلهما يومين في الأسبوع.

لعل ماكس يحاول أن يضيّق الخناق عليها ليجعلها تتوسل إليه كي يقبل فالمسألة خاضعة لمشيئته.

- لعلهما بحاجة لصرف الطاقة، لكن هذا عمل المربية. يُفترض أن تحرص المربية على أن تتأكد من أن ذهنيهما يتطوران، وأنهما يمارسان ما يكفي من اللعب الصحي وما شابه من الأمور.

لعله يفسر ناحية من الأمر. وسواء ذهب الولدان إلى مركز الرعاية اليومية أم لا، فهذا لن يؤثر في ماكس، خصوصاً وأن الولدين مع مربية تهتم بهما أربع وعشرين ساعة يومياً. وتساءلت أين تراه يتوقع أن يجد هذه المربية المثالية.

- لا يمكن أن يفعل هذا سوى المربية.

وسمعت صوت أقدام صغيرة في الممشى فأسرعت تقول، آملة أن تنهي النقاش مع ماكس قبل أن يدخل جيك وجوش إلى الغرفة: «ولداك بحاجة لأن يلعبا بشكل منظم ولأن يثقا بآخرين في العناية بهما من وقت إلى آخر. اسأل أي إخصائية في رعاية الأطفال وستقول لك إنّ راعية الأطفال الجيدة يمكن أن تقوم بالأعاجيب مع أطفال بهذا العمر. عليهما أن يعرفا معلميهما، فيثقان بهم ويشاركانهم أسرارهما واهتماماتهما الصغيرة».

- أنا أقولها مرة أخرى. سيكون لديهما مربيتهما التي يثقان بها، وليسا بحاجة إلى آخرين ليرعوهما أو يصغوا إلى أسرارهما.

كان صوته جافاً وهو يتابع عابساً: «أما بالنسبة إلى الأمور الأخرى، فادعي بعض الأولاد ليلعبوا معهما إذا شئت. لا بد من وجود بعض الأولاد في المنطقة، وستكون النتيجة هي نفسها».

- لا، لن تكون. إن ذكريات جيك وجوش عن دار الرعاية خاصة بهما.

كان الطفلان قد اتجها إلى غرفة نومهما لسبب ما، لكنها أبقت صوتها منخفضاً من باب الاحتياط ولم تجد ذلك سهلاً نظراً لمدى غضبها، وهي تتابع: «يبدو أنك لا تهتم. أنت مليء بالمفاجآت، يا ماكس. أولاً أنت لا تريدهما بقربك كما لا تريدهما أن يمرحا...».

لم تستطع أن تتوقف عن الكلام ما جعلها تتوتر وهي تتابع: «إنهما ولداك ويُفترض أن تحبهما. وعندما تحب الناس يا ماكس، عليك أن تدعهم يعثرون على أنفسهم حتى لو كان ذلك يعني أن تدعهم يخرجون ويختبرون الأمور بأنفسهم».

هذا التصريح الانفعالي خرج من قلبها، وكانت تعني به نفسها كما تعني ولديه، فأجابها بنزق: «أعرف هذا».

وساد الصمت. وأثناء صمته هذا اندفع الصبيان إلى الغرفة وعيناهما تتألقان وهما يقفزان ويصيحان بابتهاج.

نظر ماكس إلى ولديه ثم حملق في قوبي وقد توتر فكه واحمرت عيناه غضباً: «إنها زيارة. سأوافق على هذا فقط».

تملكها الارتياح، وقالت: «استرح، سأرى الوضع وأقيّمه».

أمسكت بكل صبي بيد وسارت نحو الباب غير راغبة في الإبطاء وإعطاء ماكس فرصة للاحتجاج، وهي تقول: «سأعطيك تقريراً كاملاً. إذا لم يكن المكان على قدر المستوى المطلوب، فسأعترف بذلك على الفور ومن ثم يمكننا...».

- لا، أنا سأتفحص الأمر.

وأخذ طفليه منها، ثم حمل كل واحد منهما على ذراع.

- والآن فلتنه هذا الهراء قبل أن أفقد صبري كلياً.

ولم يلاحظ أنه حمل ولديه بملء إرادته، وأنهما تقبلا حمايته الخشنة هذه من دون سؤال. وحدثت فوبي نفسها بألّا تبني أي أمل على مشهد صغير جاء نتيجة غضب.

* * *

كان مركز الرعاية يقوم وسط أرض مليئة بالأدغال. أوقف ماكس سيارته في أحد الأمكنة المعدة لذلك، ثم نزل منها ووقف يقيّم مظهر المنزل، بينما أخذت فوبي ترتب الولدين لكي يظهرا بشكل جيد.

تملكه الاستياء كما تملكه من قبل الشعور بالحاجة إلى حمايتها. فإلى أين قاده ذلك؟ إلى المشاكل مباشرة، مشكلة تجسّدت على شكل هذه الزيارة.

لكنه والدهما وهذا يعني أن عليه أن يتخذ بعض القرارات نيابة عنهما، وقد اتخذ قرارات بشأن كاترين. لكن المشاكل لم تظهر إلّا عندما حاول أن يتقرّب منها شخصياً:

إذن... الفحص والتنظيم، التخطيط والدراسة، واتخاذ القرار... هي أمور يجيدها. لكن هذه الأمور توحي بتورط بشكل شخصي أكثر مما ينبغي...

- فلنذهب.

زمجر بذلك مصمماً على أن ينتهي من هذا الأمر بأسرع ما يمكن: «إذا أردت أن أقيّم هذا المكان بشكل مناسب فلا يمكنني هذا من مكاني هنا بجانب السيارة».

- بلى، يمكننا ذلك من مكاننا هنا.

والتفتت إليه وعيناها تقدحان شرراً. يُفترض أن يكون اللون الأزرق لوناً هادئاً، لكن عيني فوبي كانتا أبعد ما يكون عن الهدوء إذ بدتا ملينتين بالتحدي والتصميم. كانت هذه المرأة عنيدة إلى أقصى حد.

وسألها: «مثل ماذا؟ طريقة تناسب لون الدهان مع لون السماء؟».

قالت وهي تصرّف بأسنانها: «سهولة الوصول إليه، ووجود أماكن لركن السيارات».

ثم التفتت إلى ولديه ورسمت ابتسامة على شفتيها وتعمدت إشراكهما في الحديث: أليس هذا جميلاً؟ كل هذه الأدغال التي خلفه وكأنكما في بيتكما؟».

فأجاب جيك: «نحن نحب بيتنا الجديد».

وأضاف جوش: «نحن نعيش هناك الآن».

- تجهيزات اللعب تبدو جيدة ومناسبة وثمة مساحات كثيرة واسعة أيضاً.

واستقر بصرها على الملعب، فيما وقف ولداه بجانبها وأمسك كل واحد منهما بيد من يديها.

لِمَ يحيط الغموض بهاتين اليدين الأنثويتين. إنه يكاد يعتاد على الرغبة في فوبي وهو أمر أكثر خطورة من عدم الرغبة فيها.

- معظم الأشياء في تلك الساحة خشبية.

وسار بجانبها كارهاً وهي تتقدّم نحو مدخل المؤسسة. وعندما اقتربا أشار إلى مبنى أشبه بحصن مع عدة درجات من جانب واحد، وطريق منحدر من الجانب الآخر.

- ذلك الحصن لا يبدو آمناً، إنه مرتفع جداً بالنسبة إلى المبتدئين.

- ليس تماماً. فكّر في بهجة الطفل وهو يصعد إليه، مدعياً أنه جندي على السطح يراقب الأعداء.

- الألعاب الحربية غير مناسبة.

- عنيت ذلك من الناحية التاريخية. كما انها ألعاب تنمّي الخيال ويجب تشجيعها.

قال وهو يشق طريقه إلى الأمام: «اسمحي لي أن أفتح لك الباب».

عندما دخلوا وقف ماكس وأخذ ينظر حوله. كان المكان مجموعة من الألوان المنثورة على الجدران، والأرض، واللوحات، والستائر. بدا الأحمر والأزرق والأصفر في كل مكان، تتخللها ألوان خضراء متوهجة وبرتقالية، ووردية، وأرجوانية.

كان المركز يهتز بالضجيج، كيف يمكن لأي شخص أن يلحظ وصولهم؟ لم يستطع ماكس أن يتصوّر ذلك، لكن امرأة في منتصف العمر خرجت إليهم من غرفة تعج بالأطفال وقابلتهم في البهو. حيّاها ماكس بشيء من البرودة لكن المرأة تجاهلته وتجاوزته وهي تمد يدها إلى فوبي: «لا بد أنك فوبي؟».

ابتسمت فوبي وهي تصافحها: «كارول؟ شكراً على موافقتك على اليوم. الولدان في منتهى الحماس للقدوم إلى هنا».

قدمت إليها جيك وجوش وأخيراً ماكس، وكأنه أقلهم شأناً. حياها ماكس وهو يصرف بأسنانه ويفكر كم من الدقائق ستمر قبل أن يعودوا جميعاً إلى السيارة ويغادروا. قالت المرأة وهي تتقدّمهم وكأنها تتوقع أن يتبعوها: «فلنرهما المكان».

لم يكن ماكس يحب النساء المسيطرات، وفكّر في أن هذا يفسّر ولع فوبي برعاية الأطفال، فهذه المهنة تناسبها إلى أقصى حد. وتنفس بغيظ ثم تبعهم، وإذا بالذهول يتملكه. والسبب هو فوبي طبعاً.

المشكلة هي أنها مثيرة بشكل مذهل، وهذا سبب ممتاز يجعله يقفل على نفسه باب مكتبه حتى لو لم يكن لديه عمل.

كان ماكس يرغب فيها ما يسبب له الكوابيس منذ وقت طويل. الرغبة فيها لم تضعف منذ ذاك العناق الغلطة، كما لم تسكن. استطاع أن يتجاهلها لفترة قصيرة، لكنه يرغب فيها الآن وسط مركز الرعاية ورغم حشد الأطفال وصخبهم وهياجهم.

كان جوش وجيك يمرحان... وهذا أمر مهم أيضاً. ولِمَ يمانع ماكس في تسجيلهما؟ إذا كانا سيستمتعان في هذا المكان ويمرحان من

دون أن يورطه ذلك في شيء.

كانت هذه الحجة منطقية، لكنه لم يفهم لما شعر بخيبة الأمل!

- مركز الرعاية هذا رائع يا ماكس.

وأضافت فوبي وهي تلتفت إليه والتحدي على ملامحها: «أنا أعرف أنك تقف هنا لتقيّمه وتصدر حكمك عليه. ليتك تدع عنك العناد جانباً ثم...».

- إني أقيّم النوعية.

ما كان يصدر حكمه عليه هو مفاتنها، لكنه لن يقول لها ذلك. كما أنه لا يريدها أن تفترض أموراً عنه، حتى إن كان فيها شيء من الصحة. ومع ذلك شعر ماكس بالزهو لقدرته على تغيير رأيه في هذه المناسبة النادرة، بعد أن أدرك أنه أصدر حكماً سابقاً لأوانه. وقال: «موظفون ممتازون، وتنظيم جيد».

تملكه السرور وهو يرى الصدمة التي بدت على وجهها، وقرر أن يستمتع بذلك ما دامت الصدمة موجودة، رغم أنّ هذا لن يدوم طويلاً حسب معرفته بفوبي: «من الواضح أن جوش وجيك أحبا هذا المكان بما فيه من تفاعل وفرص وألعاب، ولهذا سأسجلهما».

- أنت سوف... أنت... ماذا قلت؟

وفتحت فاها ذاهلة.

- قلت إنني سأسجلهما اليوم، إذا أمكن ذلك.

استمرت فوبي في التحديق فيه صامتة. في الواقع، كانت قد انسجمت بشكل رائع مع موظفي المؤسسة، متنقلة من مجموعة صغيرة إلى أخرى، وعيناها على صغيريه من دون أن يبدو عليها ذلك.

باختصار، كانت فوبي أعجوبة في هذه الأمور، وطبيعية تماماً. وأعجب ماكس بخبرتها هذه وأحبها. وأعجب بفوبي بسببها. لقد رغب فيها بشكل ما وبطريقة مختلفة ،طريقة أعمق. الآن، وبعد أن رآها تعمل هنا، لم يعد يجد ما يساعده على استعادة راحته النفسية.

٦ ــ عرض مستحيل

- أنا لا أتعب قط من النظر إلى ذلك الضباب الأزرق. إنه رائع.

ومدت فوبي ذراعها على الحافة وهي تنظر عبر وادي جاميزون إلى الجبل، وتساءلت عن سبب توتر ماكس.

كانا عند «نقطة مراقبة الملكة فيكتوريا»، قبالة شلالات كاتومبا. وتردد في الوادي السحيق المليء بالنباتات أصوات الطيور المغردة. كانت منطقة مسالمة رائعة الجمال، لكن الرجل الذي بجانبها بدا غير مستمتع بهذا كله. كانت قد اقترحت عليه هذه النزهة بعد زيارة دار الرعاية لتحرص على أن يقضي ماكس بعض الوقت مع الطفلين.

وقف ماكس خلف ولديه وقد قطب جبينه عابساً. لم يتكلم كثيراً لكن نظراته المتوعدة كانت تعد بعقوبة ما. ولم تشعر فوبي بالأسف خصوصاً وأن الولدين بدآ يعتادان على والدهما بهذا الشكل، ما ترك بعض التأثير في ماكس من دون شك ما دام لم يدفعهما عنه بعيداً. وكانت هذه بداية طيبة.

بدا الرضى على الولدين وهما يحدقان في المنظر الذي يمتد أمامهما، وكان جيك قد لفّ ذراعه حول ساق والده.

- إحضارهما إلى هنا كان تصرفاً حسناً منك يا ماكس.

وابتسمت له ابتسامة عريضة.

- تظنين أنك حللت الأمور كلها أليس كذلك؟

كانت الريح قد شعثت شعره ما منحه مظهراً خشناً من الصعب

مقاومته لكنها لم تشأ أن تدع هذا يلهيها عن غرضها هذه المرة: «علينا أن نأخذهما على قطار المناظر الطبيعية أيضاً».

لن يقبل بهذا، لكن منذ متى تدع أمراً كهذا يقلقها؟ وتابعت: «امنحهما شيئاً من البهجة. إنها أجمل نزهة في استراليا».

فقال بهدوء: «لا، يمكنك أن تأخذيهما بنفسك ذات يوم إذا شئت أن تفعلي ذلك. أنا لست أحمق يا فوبي، فأنا أدرك أنك تدفعينني وأعرف السبب. فتوقفي عن ذلك الآن».

لكنه لم يحسب حساب الولدين العاشقين للقطارات.

- أرجوك يا بابا هل يمكننا ذلك؟

- نحن نحب القطارات.

وأخذ الولدان يقفزان مكانهما ثم ركضا عائدين إلى السيارة مفترضين بثقة الأطفال أنهما ذاهبان فعلاً. عندئذ، ساور فوبي شيء من الندم. وعندما لحقا بالولدين، حملق ماكس بفوبي وقال: «لا أريدك أن تستدرجيني بهذه الطريقة يا فوبي هل تفهمين؟».

- لم أكن...

ثم سكتت فجأة، وعادت تقول: «اسمع، إذا كنت لا تريد أن تذهب فلا بأس، سآخذهما أنا بنفسي غداً».

بعد التأكد من وضع الطفلين في مقعديهما، صعدت فوبي إلى المقعد الأمامي وجلست بشكل متصلّب رغماً عنها. فجلّ ما أرادته هو أن تحسّن الأمور بينهم هم الثلاثة.

وفي النهاية، أخذهما ماكس إلى القطار من دون أن يتفوه بكلمة بهذا الشأن. بدا الولدان سعيدين في رفقته ما جعل فوبي سعيدة هي أيضاً. لعلها ستدفع ثمن تدخلها لاحقاً، لكن الأمر يستحق العناء. وهكذا، استسلمت للمتعة طالما أمكنها ذلك. بعد ركوب القطار تناولوا المثلجات، فاختارت نوعاً رائحته تشبه رائحة العلكة ما جعل ماكس يغضن ملامحه اشمئزازاً.

اختار هو الآيس كريم برائحة التوت البري وهذا ما جعل فوبي تصرّ على أن تتذوّقه...

وراح ماكس ينظر إليها بعينين ملتهبتين فلم تستطع التفكير بشكل مستقيم: «حديقة عامة... أراجيح، وألعاب أخرى».

كان عليها أن تقول إن الوقت حان للعودة إلى البيت، فهذا أكثر ذكاء، لكنها لم تتصرّف بذكاء اليوم، وانتظرت أن يرفض ماكس ثم يصرخ بها لمحاولتها دفعه مرة أخرى للقيام بشيء لا يريده.

لكن ماكس اكتفى بالوقوف مشيراً إلى السيارة: «بكل تأكيد. فلنكمل النهار ونذهب إلى الحديقة العامة».

وبدأت المسألة مع دعوة ماكس الساخرة، واستمرت في الحديقة العامة، كما حصل في تلك اللحظة حين احتك بها ماكس في اندفاعه ليمسك بابنه الذي ألقى بنفسه من فوق المنزلق وهو يصيح: «انظروا إليّ».

وعندها لمست يدها يد ماكس بعد أن هرعا لكي يبطئا من سرعة الأرجوحة.

بعدئذ، اصطدمت به وهي تركض بسرعة فائقة إذ كانت غارقة في الضحك تلحق بالولدين ما منعها من أن تلاحظ وجود ماكس. تلقتها ذراعا ماكس والتفتا حولها تشدانها إليه، وقد ارتسمت على ملامحه نظرة مفكرة.

مضت لحظات انحبست فيها أنفاس فوبي قبل أن ترتد إلى الخلف، مقتنعة بأن احمرار وجهها تضاعف. وكان ماكس قد تركها، لكن تأثير تلك اللحظة طال. كانت الشمس قد غابت عندما وضعا الولدين المرهقين في المقعد الخلفي للسيارة، مستعدين للتوجه إلى البيت. استدارت فوبي إليه عندما انتهت من وضع جيك في مقعده وهي تتساءل عما إذا انتهى كل شيء، فأجاب وهو يتراجع إنما ليس بالسرعة الكافية: «نعم».

واستدارت لتواجهه فقال: «أريد.. أريد أن أعود إلى البيت، لقد تأخر الوقت بالنسبة للولدين وهما بحاجة إلى الراحة».

خرجت هذه الكلمات من فمه خشنة، مثيرة للمشاعر، وخففت فوبي بأهدابها وأشاحت بعينيها عن وجهه ثم عادت تنظر إليه.

لم تستطع أن تبتعد عن حرارة نظراته وقالت: «طبعاً، كلما أسرعنا إلى النوم كان ذلك أفضل».

انطلقت السيارة وقد ساد بينهما الصمت فيما أرخى الليل سدوله فأضاء ماكس أنوار السيارة. راحت فوبي تراقب بالمرآة الولدين في المقعد الخلفي فوجدتهما قد استغرقا في النوم..

وغفت فوبي بدورها فحلمت بأنها ما زالت تشارك جوش وجيك حياتهما بعد سنوات وأن ماكس موجود أيضاً، لكنه شخصية غير واضحة المعالم إنما مألوفة تماماً، وراحت تتمتم في نومها: «أنا بخير تماماً، لا أحتاج إلى أحد، لا أشعر بالوحدة. أنا سعيدة تماماً بوحدتي».

أما ماكس الغارق في أفكاره الخاصة فرمقها بنظرة متسائلاً...

* * *

همست فوبي بهدوء من دون أن تنظر إلى ماكس مباشرة: «إذا أخذت أنت جيك فسآخذ أنا جوش. إذا حملناهما معاً، فمن الأرجح ألاّ يستيقظا».

لم تكن غبية، وهي تعلم أن ماكس قاوم انجذابه نحوها طيلة هذا النهار. لم يكن يريد ذلك كما لم يشأ أن تكون هي من يساعده في تربية ولديه. وهي تفضل أن تتجنب أي نقاش بهذا الشأن إذا كان هذا ممكناً.

كانت تعرف الحقيقة، وهي أن ماكس لا يريدها بجانب ولديه، وبشكل دائم، وقد سمح لها بالبقاء طوال هذه المدة لأنه لا يزال يعاني من تأثير الصدمة. سوف يستعيد أنفاسه قريباً، وعندئذ على فوبي

أن ترحل وقد تقبلّت هذا، لكن لا حاجة لذكر الموضوع هذه الليلة بحسب رأيها.

قال وهو ينزل من السيارة: «هذا حسن. فلنذهب إذن».

تبعته فوبي على الفور. كان الهواء بارداً رطباً يعبق برائحة شجر الاوكاليبتوس العطرة، ما يُفترض أن يترك تأثيراً مهدئاً. لكنها شعرت بالاختناق وهزت فوبي كتفيها في الظلام، فلعل توقع الشجار مع ماكس هو ما يشعرها بالاختناق.

لم تهتم بما يحيط بها بل ركزت اهتمامها على أهداف قصيرة الأمد. ستضع الصبيين في فراشهما ثم ترتاح، سعيدة على الأقل بأنها أثبتت لماكس اليوم أنه مخطئ وأنه أرغم على الاعتراف بأن مركز الرعاية حل جيد لولديه. وهي تفضل أن تذهب إلى الفراش مع هذه القناعة على أن تتعرض لاتهامات ماكس.

حملت جوش النائم بين ذراعيها ثم توجهت به إلى المنزل، وكان صدى خطوات ماكس الثقيلة يتردد خلفها لكنها رفضت أن تفكر فيه فدفنت وجهها في شعر الصبي، مستنشقة رائحة الشامبو والتراب والعرق. لم يكن هذا مرضياً لكن الوقت فات على القلق لعدم استحمامهما قبل النوم. دخل ماكس المنزل أولاً، تاركاً إياها تتبعه ثم وضع ابنه في فراشه برفق وخلع حذاءه واستدار.

- سأضع جوش في سريره...

- دعيني آخذه منك...

تحدثا وكأنهما شخص واحد فيما تقدّمت فوبي من سرير جوش، تريد أن تضعه فيه. وتقدم ماكس في الوقت نفسه ومد يديه ليتناول الطفل منها وإذا بيديه تلمسانها. وعلى الفور سرى في جسدها تيار كهربائي ما جعلها تنظر إلى ماكس بعينين متوهجتين.

أخذ جوش ووضعه في سريره، قبّله ثم غطاه. وفعل الأمر عينه مع جيك بينما وقفت فوبي جامدة وكأنها استحالت صنماً، وحثها جزء

منها على مغادرة الغرفة لكنها لم تفعل.

عندما أنهى مهمته، أمسكها من مرفقها ودفعها إلى خارج الغرفة ومن ثم إلى غرفة الجلوس حيث تمالكت نفسها أخيراً فنفضت يده عنها ثم وقفت شابكة ذراعيها على صدرها. صورته وهو يضع ولديه في سريريهما لم تفارق ذهنها، بدا الحنان في نظراته بينما تبدلت أسارير وجهه وتلاشت الخشونة من ملامحه.

كيف يتفق هذا مع مخططه للعيش من دونهما؟ لم تستطع أن تفهم. إذا كان قادراً على أن يشعر بهذا الحنان نحو ولديه فالخيارات غير محدودة. يمكنه أن يحب وأن يرغب في أسرة كاملة، وأفزعها المعنى الذي اتخذته أفكارها هذه. حان الوقت لتخرج من هنا... وبسرعة.

همست وقدماها تتجهان نحو الباب: «تأخر الوقت وأنا متعبة وبحاجة إلى الراحة لأستيقظ مع العصافير ومع ولدين بالغي الحيوية».

- انتظري.

أوقفتها هذه الكلمة وعبر ماكس الغرفة ثم أمسك بذراعها وأدارها للجلوس على الأريكة قائلاً: «أريد أن أتحدث إليك».

- تتحدث؟

هذا ما لا تريده بالضبط، كما أن نظراته إليها غريبة: جلس على كرسي بذراعين، ومد ساقيه أمامه واضعاً إحداهما فوق الأخرى باسترخاء، ومع ذلك لم يبدُ عليه الراحة والاسترخاء.

- نعم، أتحدث. ما هي خطتك للمستقبل؟ ماذا تريدين أن تفعلي بحياتك؟

- ما هذا يا ماكس؟

حاولت أن تتكلم بشكل عادي، غير راغبة في أن يشعر باضطرابها: «هل هي محاضرة عن كسلي وعدم تدبيري؟ هل تريد أن تُسمعني بضع كلمات مختارة؟ هل ستشير إلى أن بإمكاني أن أحقق شيئاً إذا ما ركّزت قليلاً؟».

ظنت أنه سيهاجم جرأتها أولاً، لكن لعله سيذكر ذلك في وقت لاحق من البرنامج.

- أردت أن أعلم إن كنت سعيدة في حياتك. إذا كان لديك طموحات ترغبين في تحقيقها؟

- لماذا؟

ما صلة هذا بوضعهم؟ برعايتها المؤقتة لولديه؟ ولِمَ لا تكون هذه بداية الشجار العنيف الذي تنبأت به؟

- سأشرح لك الأسباب إذا أجبتني أولاً.

- لا بأس، ماذا أريد من حياتي؟

ما الذي تريده حقاً؟ داعب هذا السؤال أحلامها. إنها ترغب في ماكس. في ماكس وولديه الحبيبين، إلى الأبد بدلاً من الفترة القصيرة حيث تخدم جيك وجوش حتى يجد لهما أبوهما مربية أخرى أفضل منها ويطردها هي.

قالت وهي تلوح بيدها، نابذة هذه الأفكار: «أريد الأمور المعتادة، أن أكون سعيدة، أن أشعر بأنني شريكة بشكل ما، احتياجاتي ليست كبيرة».

- ماذا عن مزيد من العلم؟ الطريق إلى مهنتك؟ هل من شيء خاص تريدين أن تحققيه في هذا المجال؟

لعله يفكر في أن يلقي عليها محاضرة: هذا غريب! ارتاحت تقريباً لهذه الفكرة، لكنها عادت فنظرت إلى ماكس لتراه يراقبها بإمعان واهتمام. لكنها لاحظت شعوراً آخر، شعوراً حاراً لكنه مقيّد بشدة، وجمد الدم في عروقها من عمق تلك النظرة. وتنفست بعمق، محاولة أن تتمالك نفسها: «مساعدة... أن أكون مساعدة في مركز للرعاية هو أمر رائع، ولكن ما أريده يوماً ما، هو أن أحصل على المؤهلات اللازمة للتعليم في مدرسة ابتدائية».

- اذهبي إلى الجامعة.

- نعم، وأحصل على شهادة جامعية في التعليم.

- يمكنك أن تدرسي بدوام نصفي، لتدعي مجالاً لما تقومين به في حياتك.

ما الذي يهدف إليه يا ترى؟

- ماكس، أنا لا أعلم ما الذي تريده من....

- الزواج. أن نتزوج نحن الاثنين، هذا سيحل المشاكل كلها.

حدقت فيه مذهولة... الزواج؟ أتراها تحلم؟

- تريد ماذا؟

تخلل شعره بأصابعه: «أقترح أن نتزوج، أظنها فكرة حسنة».

نظرت إليه فاغرة فاها، ماكس المهذب الحساس، الرزين، المستقيم، يطلب منها، هي فوبي جيلبرت الطفلة التي نبذتها أمها الراقصة الأجنبية، وأبوها السياسي الذي رفض أن يعلم شيئاً عنها يطلب منها أن تتزوجه؟ وقالت: «لا أفهم».

وتملكها الأمل لحظة، ستنتمي إلى مكان ما وإلى أسرة. هي وماكس وجوش وجيك سيعيشون هنا معاً، سيشكّلون أسرة... ستحصل على كل ما تريده، حتى أنه لم يعد يهم أنها لا تستطيع الإنجاب. ماكس يطلب منها أن تكوّن أسرة معه، لأنه يراها تستحق ذلك. لقد رأى فيها شيئاً جعله يعتقد...

أرادت أن تقفز فرحاً، أن تبكي ولا تتوقف أبداً. كان هذا رائعاً، ممتازاً... إنه أمر غير منتظر ولا يصدّق. وعاد ماكس يتحدث، مائلاً إلى الأمام في كرسيه وهو ينظر إلى وجهها: «ثمة فوائد كثيرة نجنيها يا فوبي. درست الفكرة من جوانبها، فوجدتها معقولة تماماً».

كان يتحدث وكأنه رجل أعمال، وأدركت هي ما يعنيه هذا. إنه يتناول الأمر وكأنه يتكلم عن فوائد صفقة ما، وذلك ببرودة وهدوء ولهجة عملية مجردة. هبطت حماستها وعضت شفتها السفلى متمنية لو بإمكانها أن تسكته في هذه اللحظة، أن تضع يديها على أذنيها كيلا

تسمع كلمة أخرى. الحياة ليست سخيّة إلى هذا الحد. وهكذا، جلست محاولة أن تبدو وكأنه لم يقدم لها منذ لحظات الشمس والقمر والنجوم ما جعلها تتساءل عما إذا كان ما سمعته حقيقة.

- أريد رعاية مستمرة لولديّ، أنت ستتمكنين من متابعة دراستك من دون القلق على المال. سيكون لك هذا كله.

وأشار بيده إلى ما تحتويه الغرفة.

هل هذا هو الأمر؟ هل هذا كل ما يعنيه الزواج؟

كانت الكلمات على طرف لسانها لكنها لم تنطق بها. انكمشت في داخلها مختزنة كل هذا حتى تخلو بنفسها فتفرغ تعاستها. كم كانت غبية! ما كان ماكس ليرغب فيها حباً بها، كما أنها هي أيضاً لا تحبه فالمرء لا يحب عدوّه. ولطالما كان ماكس كذلك. وتمسكت فوبي بهذه الفكرة كخشبة نجاة.

التهبت عيناه وهما تتأملانها بتملك: «وستكون العلاقة الجسدية بيننا جيدة، فالانجذاب موجود رغم أنه يدهشني».

شعرت فوبي وكأنها تلقّت صفعة على وجهها، أرادت أن تقول أي شيء يمحو تلك الثقة عن ملامحه، كما أرادت أن تؤلمه وتصرخ في وجهه، لكنها لم تفعل شيئاً كهذا بل جلست صامتة غير واثقة من نفسها، مجروحة الكرامة. بسط يديه وهز كتفيه: «إنني منجذب إليك، وأنت منجذبة إليّ، فإذا اتحدت قوانا، ستنال ما نريده نحن الاثنين. وقت ممتع، حلاً لفقرك، رعاية للولدين. أنا واثق من أنك مدهوشة».

سكت وهز كتفيه ثم تابع يقول: «أنا نفسي تملكتني الدهشة عندما توصلت اليوم إلى الفكرة هذه لكنني أظنها ستنجح، أظنها تستحق المحاولة حقاً. ما كنت لأتزوج قط على أيّ حال، وهكذا ليس لديّ ما...».

ما تخسره! أكملت جملته في سرها، ولحسن الحظ أنها استطاعت أن تتمالك نفسها فلم تنهمر دموعها. لقد ساورها حلم سعيد للحظة،

لتكتشف أن لا أساس له من الصحة، لكن تلك اللحظة مضت وابتدأت فوبي تستفيق من الصدمة لتتمكن من التفكير.

ماكس ليس بطلاً، ولا فارساً يحمل سيفاً يلمع! وتملكها غضب عنيف جعلها تهب واقفة فوقف هو أيضاً، ما جعلهما أقرب إلى بعضهما البعض حتى كادا يتلامسان رغم كراهيتها لذلك. فهي لا تزال غير واثقة من قدرتها على تمالك نفسها. لكنها تماسكت ونظرت إلى وجهه وقد ضاقت عيناها وامتلأتا بالإحباط والإزدراء اللذين تشعر بهما: «لم أكن قط فقيرة في حياتي».

أبقت صوتها خافتاً لئلا توقظ الطفلين القريبين منهما: «أظنك فكرت في أن تشتري لي بعض التعليم في خطتك الصغيرة التي وضعتها؟».

- من الطبيعي، بصفتي زوجك، أن...

فقاطعته: «كلا».

كانت تعلم أنها تتجنب المسائل الشائكة وتركّز على الجانب الأسهل من المشكلة.

- هذا الجانب من المشروع ليس في الواقع المسألة الجوهرية....

لم يظهر عليه ما إذا سمع كلمة (كلا) وبدلاً من ذلك مدّ يده إليها مضيفاً: «هذا لأجلنا نحن وليس من أجل دراسة قد لا تتابعينها».

- إذن فأنا كسولة أيضاً فضلاً عن فقري وغير قادرةٍ على إتمام عملي حتى النهاية.

وابتعدت عنه قليلاً: «هذه ليست البداية سوى للخطأ فكرتك».

سكت حائراً، قبل أن يقول: «حاولي أن تري الأمر من وجهة نظري أنا، بدلاً من تلوينه بشيء من نظرتك غير العادية».

ألا يمكنه أن يسمع نفسه؟ أليس هذا كافياً ليرى أي غلطة يرتكبها، وكم كان غبياً لمجرد التفكير في الأمر؟ الزواج لأسباب خاطئة،

الزواج لأسباب جسدية، لتساعده على عدم الالتزام نحو ولديه. إنه يريد أن يغيّرها، أن يجعل منها امرأة مختلفة عما هي عليه حالياً وعما كانته، ليتمكن من احتمالها في حياته ولتصبح مناسبة له.

- لن أتزوجك يا ماكس، لأنني لا أرى فائدة واحدة في هذا الأمر.

وزمت شفتيها واعتدلت في وقفتها محدثة نفسها بأن عليها ألّا تظهر أنه آلمها ولتدع الساخر عديم الشعور يبقى أعمى: «لا تهمني أي علاقة جسدية معك، ولا أريدك أن تساعدني في تحسين وضعي المالي. على الرغم من اهتمامي بولديك وأنا أهتم بهما فعلاً، أعترف بأنني لا أرى أن دوري هنا يشمل إدخال البهجة إلى حياتهما عندما يكبران في السن ويشيب شعرهما ويصيبهما الخرف كما ستصبح أنت يوماً ما».

بعد لحظة من التحديق فيها وقد تملكته صدمة، تقدم منها لكنها هربت من الباب وصفقته خلفها قبل أن يصل إليها. ركضت في الممر إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها بقوة من دون أن تجازف بإيقاظ الطفلين. الزواج، يا للعجب! ويقول إن أفكارها هي سخيفة، وتمنت أن يدوم غضبها حتى تعتدل خفقات قلبها.

٧ ــ اعترفي

- هل فقدت عقلك تماماً؟

دفع ماكس باب قن الدجاج بعنف ما جعل نصف دجاجاته تتطاير إلى آخر الساحة وهي تصيح مذعورة، بينما تابع كلامه: «هذا ليس جزءًا من عملك كمربية».

مع كل خطوة تقرّبه منها، كان يجد مزيداً من الصعوبة في تمالك أعصابه. لقد اضطر لأن يرضى بأسوأ المربيات طباعاً في العالم.

- كلامك صحيح، لكنني لا أعمل الآن وبالتالي لا يهم ما أقوم به.

كانت تضع قدمها على الرفش الذي غاص في مزيج من الطين والرمل والقش. وضاقت عينا ماكس: «لا تعملين؟ هل تعنين أنك سترحلين؟»

- لا يا ماكس، رغم أنك ستضطر لأن تحضر مربية غيري، ونحن نعرف هذا منذ البداية، والآن تضاعفت الضرورة لذلك.

بسبب الليلة الماضية؟ فكر في ذلك طبعاً بينما بقي مستيقظاً محاولاً أن يستنتج السبب في فشل مثل هذا العرض البسيط والمناسب للزواج، حين حاول أن يتقبل فكرة أنه وجد الخطة المناسبة التي ستنهي مشاكله فرفضتها فوبي ببرودة الثلج، حين بقي هو يعاني من خيبة أمل يبدو أنها لن تفارقه.

أثناء تفكيره في هذه الأمور كلها، أدرك أن فوبي وضعته في موقف

www.elromancia.com

صعب، ففي هذا الوقت القصير الذي أمضته هنا تسللت إلى قلبي ولديه ما جعل من القسوة أن يحاول استبدالها بمربية أخرى.

هل هذا غير منطقي؟ كلا، على الإطلاق. وإذا ظنت بعد هذا كله، أن بإمكانها أن ترحل ببساطة فلن يمر الأمر مرور الكرام: «إذا رحلت الآن، فهذا يعني أنك أكثر أنانية من أن تبقي وتنهي ما ابتدأت به».

وشعر بضيق في صدره وهو ينتظر جوابها، فقالت ثائرة: «ما الذي تعنيه بكلامك هذا بالضبط؟ من المؤكد أنه بعد ما حدث الليلة الماضية، وعدم الترحيب الذي وجدته منك منذ جئت إلى هنا، لا يمكنك أن تقول الآن...».

- لم يحدث شيء الليلة الماضية.

إنه أكثر قدرة على التعامل مع هذه الفتاة السريعة الهياج، فتحدّث إليها كما كان يفعل في الماضي: «لقد قدمت اقتراحاً، وأنت رفضته وانتهت القصة».

كان من عادة فوبي أن تنظر إليه متحدية وتجيبه بحدة. واستعد ماكس لذلك لأنه يكذب ولأن الليلة الماضية شهدت أحداثاً جهنمية فليس من عادته أن يعرض الزواج على أحد. كان في الواقع يعتقد أنه لن يخطو تلك الخطوة قط، ومع ذلك فعلها مع فوبي فرفضت هي عرضه. ما زال هذا يغيظه كما أغاظه أن وضعه، بعد عرض الزواج هذا ورد فعلها عليه، أصبح أكثر تعقيداً من ذي قبل. رفض أن يكاشفها بشعوره بل هز كتفيه ببساطة وأردف: «لا أدري لماذ يمكن لما حدث الليلة الماضية أن يجعل الأمور مختلفة، فهي مجرد فكرة. فكرة حمقاء، أعترف بذلك، لكن الموضوع انتهى الآن وطواه النسيان، وعلينا أن نمضي قدماً. لقد افترضت أنك تريدين أن تفعلي ما يخدم مصلحة جيك وجوش. إنهما يحبانك ولهذا من الأفضل أن تبقي هنا. لكن لعلك غير مهتمة بما هو الأفضل؟».

- لا... أنا... أنا طبعاً أريد الأفضل للولدين.

ومضت لحظة ظن فيها أنه رأى لمعان دموع في عينيها. لكن، لا بد أنه مخطئ، لأنها ردّت رأسها إلى الخلف، ثم أخذت تضرب الرفش بعض الوقت بقدمها.

- ما قلته عن فكرة زواجنا صحيح.

وعادت تضرب الرفش مرة أخرى وهي تضيف: «أدهشني أن أسمعك تقدّم اقتراحاً أحمق وغير مناسب كهذا، لكنني أظن أن بإمكاني نسيان هذا الأمر إذا أمكنك أنت أيضاً ذلك».

- هذا حسن إذن.

هذه هي ردة الفعل التي توقعها منها، فقد أعادت الأمور إلى طبيعتها وعليه أن يشعر بالارتياح. نعم، سيرتاح حالما يجد وقتاً ليتكيّف مع تغيير خطته. ما من خطط زواج، لكنه يريد أن تبقى فوبي هنا للعناية بولديه بعد أن يعود هو إلى العمل، ربما بعد أسبوع، فهو لم يحصل على إجازة منذ بدأ العمل ويمكنه الآن أن يستغل هذه الفرصة.

لن يذهب إلى أي مكان، بل سيرتاح في بيته ويقوم ببعض الأعمال غير العادية، أو يهتم بالمزرعة. لقد مضى وقت طويل منذ اجتمع بمدير مزرعته، وقد يفعل ذلك.

- أريد منك الموافقة على أن تبقي هنا إلى وقت غير محدد، وأن تهتمي بالولدين بشكل كامل وعلى مدار الساعة.

- أنا موافقة على الاستمرار في العمل هنا طالما أننا متفقان على أن الأمور ناجحة.

وأومأت برأسها بشكل رسمي للغاية، ومن دون أن تبتسم على الإطلاق.

- أنا أتوقع منك رعاية صحيحة. ما الذي تفعلينه هنا فيما يُفترض أن تكوني في الداخل تراقبين الولدين؟ لماذا تركتهما في المنزل بينما أنا لم أخرج من غرفتي؟ لعلهما يقومان بأعمال مؤذية.

- الأذية الوحيدة التي قاما بها هي إرغامك على الاستيقاظ والخروج من السرير قبل أن تكون جاهزاً للنهوض.

بدت وكأنها تتهمه بأنه رجل ساذج كسول، وهذا بعيد عن الحقيقة: «لا أظن أن هذا سينجح إذا كنت ستتصرفين بشكل يجعل الولدين عرضة للخطر».

- هل هذا صحيح؟

ودقت الرفش مرتين فازداد غوصاً في الأرض، وتجاوب جسده مع حركة جسدها ما لم يحسّن مزاجه أبداً.

- كنت تنوح بأنك تريد الأفضل لولديك، أليس كذلك؟

توقف لحظة عند قولها (كنت تنوح) ثم ما لبث أن تجاهل كلامها، وقال: «أوضحت أنني أريد لهما الأفضل..».

وتخلل شعره بأصابعه بإحباط. لعلهما عادا إلى مهاجمة بعضهما البعض، لكن هذا لا يمنع تجاوب جسده مع جسدها. تباً لذلك!

- ما الذي حدث لك حتى تركتهما هذا الصباح؟

- أنا أساعدك لكي تبلغ هدفك، بينما أضمن لنفسي ظروف عمل مناسبة. أنت بحاجة لأن تخصص مزيداً من الوقت لولديك يا ماكس. إنهما بحاجة إلى ذلك وقد قررت هذا الصباح أن أساعدك قليلاً. هذا كل ما في الأمر.

سترغمه على أن يمضي بعض الوقت مع ولديه، هذه الفكرة جعلت الغضب يتملكه. ألم تفهم بالأمس؟

نظرت فوبي إلى الدجاجات التي كانت تنقّب في الأرض وابتسمت: «ألم تعجبك الطريقة التي تلتقط بها هذه الدجاجات الدود عن الأرض؟».

أتراها شددت على كلمة دود؟ طبعاً فعلت هذا. ضرب ماكس بيده وعاء القمح ما جعلها تجفل قليلاً، فتملكه إحساس صبياني بالسرور وقال «لا تحاولي أن تضغطي عليّ وتسيّريني يا فوبي. أنت هنا للعب

دور معين، وهذا لا يتضمن المناورات ومحاولة السيطرة لأنك تظنين نفسك أكثر خبرة».

- هذا حسن للغاية.

وضربت الرفش بحركة قصيرة غاضبة: «أظن أنّ هذا يترك السبب الآخر لغيابي عن البيت هذا الصباح».

- وما هو؟

مهما كان الاتهام الآخر الذي ستوجهه إليه فقد تلهف ماكس لسماعه، ليتمكن من دحضه. على فوبي أن تعلم أن ثمة حدود ينبغي ألّا تتجاوزها لمجرد أنها تريد ذلك. لا شك في أن لديها مطلباً غير متوقع.

- قالت ساخرة: «العطلة؟ الإجازة؟ أتعلم؟ الاستراحة المنتظمة من العمل أربع وعشرين ساعة يومياً على رعاية طفلين صغيرين؟».

وتمايلت استعداداً للقفز، فاندفع ماكس من دون تفكير ليتلقاها بين ذراعيه، وبقيا متلاصقين وجهاً لوجه ويداه على خصرها. كانت رشيقة وناعمة الملمس إلى حد لا يصدق، فحرص على ألّا يسبب لها خدشاً أو رضّة، لكنه لم يشأ في الوقت عينه أن يطلقها، وأراد أن يستمر في تفحصها حتى لم يعد هناك ما يفحصه.. تباً لها لأنها تجعله يرغب فيها، ثم ترفض حلاً يمكن أن يناسب تلك الرغبة.

- كان عليك أن تراعي كيفية النزول عن ذلك الشيء.

ووضعها على الأرض ثم تراجع إلى الخلف، معفياً نفسه من الشعور بها، وتذكر كلماتها، فسألها: «هل أنت في الخارج لأن لديك إجازة؟».

- هذا صحيح.

وتنفست ببطء، ثم سارت إلى باب الحظيرة وهي تقول: «أنا انتهيت من هنا، لكن إذا شئت أن تبقى...».

- طبعاً لا.

وتبعها إلى الخارج ثم أغلق الباب بالمزلاج، وهو يتساءل عما عليه أن يفعل: «لم تذكري أن عليك أن تأخذي يوم عطلة، لعلي توقعت...».

- هذا حسن، كنت أعلم أنك ستتفهم الأمر، حتى أنك قد تندم لأنك نسيت تنظيم أوقات فراغي من دون علم مني.

- لم يمض عليك هنا عشرات السنين، كما تعلمين.

لكن كلامها أشعره بالإحباط، وجعله يشعر بالدناءة وعدم التفكير: «على أي حال، أنا أعتذر إذا كنت...».

مشغول الذهن؟ من دون عقل إذ أشتهي امرأة لا تعجبني؟

- كنت أركّز على أمور أخرى، فلم أفكر في هذا. يمكننا إذا شئت أن ندخل إلى البيت الآن ونبحث في التفاصيل كلها.

- لا حاجة لذلك.

وهزت رأسها وقد تملكتها الثقة فجأة وأراد ماكس أن يرفعها إلى أعلى ويعانقها إلى أن تعترف بأن بينهما شعوراً ما، ولن يذهب حتى يسمحا لهذا الشعور بأن يصل إلى نهايته الطبيعية. وبدون أن تتنبّه إلى أفكاره، ابتسمت معجبة بنفسها وهي تقول: «أنا واثقة الآن من أنك ستجعل ساعات عملي أقل إجهاداً في المستقبل، بعد أن انتبهت إلى الموضوع».

- هذا حسن، من الطبيعي أن أفعل هذا.

وصرف بأسنانه. ربما عليه أن ينسى قضية الزواج ورعاية ولديه، ويغريها. ولعل هذا يخرجها من حياته فيصبح الأمر أشبه بإخراج جسم غريب من مجرى دمائه.

- حسناً سأمضي يوماً رائعاً لأن «برينت» لديه عطلة اليوم أيضاً. لدينا بعض المشاريع معاً.

بدا أنّ فوبي غافلة تماماً عن المنحى الذي اتخذته أفكاره، ربما لأن هذه الأفكار كانت عدائية حالياً.

- لقد أرسلت برينت في مهمة مع الطفلين.

وخطر لماكس أنه لو كان يعلم أن البستاني يتقرّب من «مربيته»، لفكّر في أن يبعده نهائياً. وتابع يقول: «كان متوجهاً إلى المدينة، فطلبت منه أن يأخذهما معه للنزهة».

فقالت: «هل نسيت أن اليوم هو يوم عطلته؟ لقد منحته يوم عطلة لكنك عدت وأفسدت يوم عطلته».

- في الواقع، نسيت هذا وإلا لما طلبت منه ذلك.

بالرغم مما تظنه فوبي، نادراً ما كان ماكس ينسى شيئاً. وهزت كتفيها ثم تابعت طريقها إلى المنزل فيما ظهرت سيارة على الطريق العام. ها هو برينت يعود وحدث ماكس نفسه بأن قضاء فوبي نهار عطلتها مع البستاني الشاب لا يزعجه، لكنه وجد صعوبة في أن يصدق نفسه وقال: «لدينا أمور علينا أن نناقشها».

قالت وهي تلوّح بيدها ببشاشة لبرينت الذي ركن السيارة بجانب الحظيرة: «آه، مهما كانت تلك الأمور، يمكنها الانتظار بكل تأكيد» وتابعت متوجهة إلى ماكس: «سأرسل لك الولدين».

وابتعدت بسرعة، والجزمة الوردية في قدميها. من ذا الذي يذهب إلى مكان متحضر منتعلاً جزمة حتى لو كانت وردية اللون؟ فكر في هذا كله وهو يضع قبضته في جيبه ويسير إلى الشرفة ببطء. وعندما عبر ولداه الفناء متجهين نحوه، تذكر ماكس أن فوبي تخلت عنه ليرعى الولدين وحده طيلة النهار. لقد تحايلت عليه مرة أخرى، سمح هو بحدوث ذلك. كان مستغرقاً في الرغبة فيها متجاوباً مع تأثيرها فيه إلى حد لم يلاحظ معه إلى أين يقوده هذا إلا بعد فوات الأوان.

وبالرغم من تجربته المتعبة مع ولديه، أمضى هذه المرة وقتاً لا بأس به معهما. كانت رعايتهما أسهل بوجود وسائل اللعب وكومة الرمال. وعندما تملك الملل الولدين بعد الظهر، أخذهما إلى الخارج، وجال بهما في بستان التفاح، شارحاً مراحل نمو الشجر

بتفاصيل رائعة. لكن يبدو أنهما استمتعا برفس أكوام الطين التي صادفوها بين الاشجار، هذه الأراضي ستكون ملكاً لهما يوماً ما، وهو يريدهما أن يقدّرا ذلك إذا استطاعا. إنما كيف يمكن أن يعلّم ولديه أن يحبا إرثهما بينما هو بعيد عنهما. تمنى ماكس لو أن الوضع مختلف، لكنه لا يستطيع أن يغير من نفسه، ولا يستطيع أن يمنحهما ما لا يملكه هو. وزحف الليل ببطء فوضع الولدين في الفراش من دون أن يلحظ كم كانت هذه المهمة سهلة، فأفكاره مع فوبي، التي عادت أخيراً بعد أن استعاد نشاطه.

عندما وصلت إلى الباب الأمامي كان هو في انتظارها.

- هل أمضيت وقتاً حسناً؟

كانت نبرته ساخرة. وكان لديه المزيد ليقوله مثل (الوقت تجاوز منتصف الليل، وقد انتهى يوم إجازتك رسمياً. هذه عدم مسؤولية، ألا تظنين أن عدم النوم باكراً يجعلك غير نشيطة ويمنعك من الاستيقاظ باكراً لرعاية الولدين؟). إنها وظيفتها على أيّ حال إذا ما نسيت ذلك، لكن الكلمات احتبست وهو يقف جامداً في باب غرفة الجلوس، محدّقاً في باب المدخل، في المرأة التي يعرفها إنما بدت مختلفة.

هل هذا شعرها؟ هذا الذي يتألق ويتماوج في هالة رائعة حول رأسها؟ أم لعله الثوب؟ ثوب برتقالي ضيّق يعكس على بشرتها لوناً ذهبياً دافئاً. ماذا حدث للجزمة الوردية والسروال القصير؟ ماذا حدث لفوبي التي يعرفها، والتي يكاد لا يعرفها الآن؟ في الواقع... بدت فوبي وكأنها تنير المكان. وصدمته فكرة سرت في كيانه كالسم: هل تألقها هذا من تأثير برينت فيها؟ هل جعل بستانيه فوبي تبدو بهذا الشكل. ما الذي فعله بها ليجعلها تبدو كذلك؟ كم عمر الشاب؟ تسعة عشر عاماً؟ عشرون؟ إنه يافع.

لكن فوبي ليست أكبر من ذلك بكثير، وهي ليست من كبر السن بحيث لا تنجذب إلى هوبسن برينت، أما ماكس فكان يقرب من

الخامسة والثلاثين من عمره ما يجعله هرماً نسبياً، إنما هذا لا يعني أنه يقوم بالمقارنة، فهو تتجاوز رغبته في فوبي، ولا شك أن جسده سيلتزم بهذا القرار في أي وقت الآن.

- لا تقلق يا ماكس، أستطيع أن أهتم بالولدين في الصباح.

وخلعت حذاءها ومدّت ساقيها مضيفة: «أنا لست كبيرة في السن بحيث لا أستطيع أن أسهر ليلة في الخارج ثم أزاول عملي المعتاد في الصباح».

هذا حسن إذا لم تستمر في القيام بما يشغل باله.

- لِمَ لا تزال مستيقظاً، على كل حال؟ هل الولدان بخير؟ هل كانا قلقين غير مرتاحين؟

لا... إن والدهما قلق وغير مرتاح. فكّر في هذا قبل أن يزمجر قائلاً: «كلا، الولدان بخير وهما نائمان».

- هل انتظرت لتطمئن عليّ؟

وبدا الغضب على وجهها وعادت تنتعل حذاءها متابعة: «هل تتجسس على حياتي الخاصة؟ لا حق لك في ذلك».

- أنا والد طفلين في عهدتك ما يمنحني حقوقاً معيّنة، لكني في الواقع لم أكن أنتظرك هنا. في الحقيقة لم أستطع النوم وهذا يحدث أحياناً للناس.

- لكن بما أنك مستيقظ، قررت أن تسألني عما فعلت.

أثناء حديثهما، أخذت الريح تصفر بصوت مخيف، بينما تابعت كلامها: «سأخبرك. ولِمَ لا ما دمت مهتماً إلى هذا الحد؟ إحدى أخوات برينت تتعلم تصفيف الشعر، فطلبت منها أن تقص شعري بهذه الطريقة، ثم ذهبنا أنا وبرينت للتسوّق. اشتريت هذا الثوب من متجر، كما تبادلنا قصص حياتنا وأمور كهذه».

ولوت شفتيها ساخرة: «أمضيت حتى الآن ساعات قليلة في رفقة ملائمة للغاية».

إذا سعت لأن تزعجه بهذا السرد البريء ليومها، فقد فشلت.

- إنه، بمعنى آخر يوم حر.

وتقدم منها قليلاً، وساوره شيء من الرضى عندما تراجعت خطوات إلى الخلف، وتابع يقول: «لكن هذه عادتك، أليس كذلك؟ أن تذهبي إلى حيث تريدين من دون الاهتمام كثيراً برغبات من يعيشون معك».

- أنا أجيز لنفسي أن أتخذ الأصدقاء وهذه ليست جريمة.

واقترب وجهها من وجهه فارتفع ضغط دمه وترافق مع غضب شديد: «أنت عديمة الاستقرار وعديمة التدبير لا تهتمين إلا بنفسك».

- وأنت متغطرس، قديم الطراز، تحب السيطرة.

- وأنت لا تدخلين الناس إلى حياتك، تسعين دوماً لأن تبقي الناس بعيدين عنك بحيث تعجزين عن إظهار حقيقتك.

- هذا مضحك وسخيف، عندما تقول هذا أشر إلى نفسك.

وضحكت ساخرة، فقال: «لا أشعر برغبة في ذلك».

كان قد دفعها حتى الباب، واضعاً كفيه إلى جانبي رأسها. وكان غضبه قد أصبح الآن حقيقياً.

- أنا أعترف بأنني أحب السيطرة، لكني على الأقل أعرف من أنا وما أكون، وأواجه تحدياتي بدلاً من أن أتنقل طوال الوقت من دون أن يتمكّن أحد من اللحاق بي.

- أنت مخطئ، فأنت أسوأ من يحاول التجنب على الدوام.

واحمرت وجنتاها وانفجرت تقول: «أنت تعلم أنك انتقدتني كثيراً في الماضي يا ماكس، لكنك لم تبلغ هذا الحد من القذارة. هذه أمور شخصية ولا تعنيك سواء ارتبطت في حياتي أم لم أفعل، كما أنك لست مرتبطاً. من أعطاك الحق في أن تتدخلَ في حياتي على أيّ حال؟».

- فانفجر يقول: «ليس هذا لأنني لا أرغب في المحاولة وبالنسبة

إلى من أعطاني الحق في أن أتدخل، فليس أنت بكل تأكيد. لقد حاولت معك يا فوبي، يعلم الله أنني حاولت كثيراً حتى لم أعد أستطيع أكثر من ذلك، أنت لم تتجاوبي معي».

- كنت تكرهني.

قذفته بهذه الكلمات وكأن فيها خلاصها: «قد كنت الشوكة في خاصرتك منذ تقابلنا، أنت لم ترغب بي أكثر من...».

- لا أدري لما تثيرين أعصابي، لم أفهم السبب قط، تباً لذلك! ومع ذلك كنت دوماً تزعجينني.

وانحدرت يديه رغماً عنه إلى كتفيها قبل أن يضيف: «معظم الوقت لم أجد سبباً لذلك، ومع ذلك كنت دوماً تضايقينني».

تحول غضبها إلى تشوش، وهمست: «ما زلنا نزعج بعضنا البعض أليس كذلك؟ لكن ثمة المزيد الآن».

فضحك بخشونة: «ثمة المزيد، ثمة هذا!».

وسرعان ما انقض عليها يرفعها عن الأرض ويعانقها عناقاً عميقاً. إذا كانت لا تريد هذا العناق فقد فات الأوان لأن تجاوبها معه جاء سريعاً.

إحتضنها كصبي امتلك فجأة علبة تحتوي على الحلوى المفضّلة لديه، وبادلته هي العناق، تجاوبت معه في كل حركة وبكل قوتها.

كل مشاعر ماكس المكبوتة أفرغها في هذا العناق.

- كنت ترغبين في هذا وتحتاجين إليه أيضاً.

كانت يداها حول عنقه، وشعر بها ترتجف بين ذراعيه: «اعترفي يا فوبي بأنك بحاجة إلى هذا... بحاجة إليّ».

كلماته هذه جعلتها تجمد مكانها لحظة، ثم دفعته بقوة.

- أنت لا تعرفني، ليس لديك فكرة عما أريد أو أحتاج.

كانت آثار تقاربهما لا تزال مرتسمة على وجهها، لكن عينيها نفثتا لهباً. وقبل أن يتمكن من النطق بأي كلمة تركته وأسرعت مبتعدة.

٨ ــ عاصفة وحنان

مزق الظلام صرخة خوف عالية، وكانت فوبي خارج سريرها حين انطلقت الصرخة الثانية، ثم سمعت الصرخة الثالثة وهي في غرفة الطفلين. كانت الرياح تولول في الخارج.

هذه الرياح أخافت فوبي في الماضي، ويمكنها أن تتفهم سبب عدم نوم الطفلين.

كان جيك جالساً في سريره متسع العينين وقد شحب وجهه فيما عادت الرياح تعصف مرة أخرى وتهزّ المكان، وكان جوش يهمهم، وعندما ارتج المنزل، عاد يصرخ.

اقتحم ماكس الغرفة راكضاً،ثم وقف ينقل بصره بين الطفلين متسائلاً: «ماذا حدث لهما؟».

- إنها العاصفة الرعدية.

ورفعت جيك من سريره تحتضنه وعندما لف ذراعيه وساقيه حولها شعرت بجسمه الصغير يرتجف وهو يدفن رأسه في صدرها. وقالت: «إنهما خائفان للغاية».

وعندما التفتت وجدت ماكس يحمل جوش بالطريقة نفسها وقد أدار رأسه نحو النافذة قائلاً: «نسيت كيف يبدو ذلك لمن هو غير معتاد عليه. علينا أن نهدئهما بشكل ما».

حاولت أن تجعلهما يبادلانها النظر قائلة: «جيك، جوش، أعرف أن هذه الأصوات صاخبة ومزعجة للغاية، ومخيفة قليلاً عندما يهتز

البيت، لكنها مجرد رياح قوية، نحن آمنون جداً هنا».

لكن الولدين لم ينظرا إليها واستمرا في الصراخ، وحاولت أن تفكر، لكن ذهنها كان مشوشاً لقلة النوم، كم الساعة الآن يا ترى؟ الثانية؟ الثالثة صباحاً؟ شعرت وكأنها لم تنم سوى دقائق قليلة قبل أن يوقظها الصراخ.

وتذكّرت سبب أرقها. ماكس، ذاك العناق. تصميمه على أن تعترف بأنها تريده، حتى بعد أن رفضت عرضه المؤلم ذاك للزواج.

إنها طبعاً ترغب فيه، يكفي أن يتواجد في مكان ما من البيت لكي ينشغل قلبها وتتشوش أفكارها. واعترفت فوبي أن وجودها هنا مع ماكس وجيك وجوش جعلها تتشوّق إلى أكثر مما اختارت لها الحياة هي المرأة التي تعلم أنها عاجزة عن الإنجاب يجذبها احتمال أن تصبح لديها أسرة جاهزة؟ حاولت ألّا تدع الوضع يؤثر فيها، لكن هذا حصل، كان الطفلان بالغي الهياج، فساور فوبي شعور بالاهتمام والحماية لا يختلف عن شعور أي أم.

عاصفة رعدية أخرى جعلت الولدين يعاودان الصراخ.

- أنت في أمان يا جيك.

وعبر ماكس الغرفة بخطوات واسعة ليصل إليها ويتمكن من أن يضع يديه على ولده الآخر ويحمله: «أنت وجوش آمنان تماماً. لن يحدث لكما شيء هنا. لن أدع ذلك يحدث».

نبرات صوته الرقيقة الخافتة والاهتمام البالغ على ملامحه، أسقطت ما تبقى لدى فوبي من مقاومة. لا بد أن ماكس يحب هذين الولدين، وإلا لما تصرف بهذا الشكل. ربما مع مرور الوقت سيزداد حبه لهما فيصبح أباً حقيقياً.

ربما كانت فوبي مخطئة في ظنها أنه يكبح مشاعره بشكل دائم. ربما أخطأت عندما رفضت عرض الزواج الذي قدّمه! لعله سيتغير مع الوقت ويبدأ بالاهتمام بها هي أيضاً. وخفق قلبها وهي تتخيّلهم

يشكّلون أسرة متماسكة تتمزّق هي شوقاً إليها.

يا لحماقتها حتى لمجرد التفكير في ذلك!

كانا معاً وسط الغرفة وكل واحد منهما يحتضن ولداً ويلاطفه في محاولة لتهدئة خوفه من غضب الطبيعة.

من المؤسف أن هذا الجزء من المنطقة يشهد مثل هذه العواصف. وفي الصباح ينتهي كل هذا من دون حتى قطرة مطر واحدة. لكن معرفة هذا لا تنفع حالياً، كما أن ادراكها لضرورة أن تقاوم رغباتها العاطفية لا ينفعها أيضاً.

- لا يمكنني أن أحارب هذه العواصف من أجلهما.

كان صوت ماكس يفيض إحباطاً. وقد اضطر إلى الكلام بصوت مرتفع ليعلو صوته على ضجيج العواصف وصراخ الطفلين.

- سريري.

كان هذا هو الإلهام الوحيد الذي هبط عليها في مواجهة مثل هذا الذعر البالغ. وأخذت تمسّد الظهرين الصغيرين آملة أن تستحوذ على انتباههما، ثم وضعت مشاكلها جانباً وقالت: «أتذكر حين حضرت إلى هنا لأول مرة وأخبرتك بأن سريري هو أكثر الأسرّة في البيت أماناً؟ ما زال كذلك، وأنا واثقة من أنكما إذا ذهبتما إلى هناك فستكونان آمنين».

أومأ جيك فيما لم يبدِ جوش أيّ ردّ فعل، لكنه لم يعد يتخبط بين يدي أبيه. أخذا الولدين إلى غرفتها بصمت، وعندما حاولت أن تضع جيك في السرير تعلّق بها وهو يشهق باكياً: «معك، مع فوبي».

- آه، يا للطفل العزيز.

واغرورقت عيناها بالدموع فصعدت إلى السرير مع جيك الذي أحاط خصرها بذراعيه، ثم مدت ذراعيها لتأخذ جوش أيضاً وقد اكتسحتها المشاعر، وأحست بأنها على وشك البكاء. أحياناً، يمكن لفوبي أن تقسم على أن رحمها يتألم لعدم قدرته على الإنجاب

ووجودها الآن مع ماكس وأولاده جعل ذلك الألم أكثر حدة.

وتنحنحت، ثم نادت جوش: «تعال يا جوش دعنا نلتصق ببعضنا البعض لندفأ».

لكن جوش لم يكن ينوي الذهاب إلى أي مكان، إذ صرخ وخبأ وجهه في صدر ماكس العاري. فقال له هذا وهو يمرّ يده على رأسه: «ألا تريد أن تنام في سرير فوبي؟ لا بأس، سننام في سريري، هل أنت مسرور؟».

لكن جوش أخذ يرفس بقدميه صارخاً: «كلا».

سألته فوبي بهدوء رغم اضطراب مشاعرها: «ماذا تريد يا جوش؟»

كان الطفلان ينضحان بتوتر ملأ الغرفة أكثر بكثير من الأعاصير المولولة في الخارج.

كان جيك ما يزال يرتجف على صدرها. ويصرخ لدى أي اضطراب مفاجئ يتملكه، وشعرت هي بمشاعرها تكاد تنهار.

قال جوش وهو يشهق على كتف ماكس: «أريد أن أنام في السرير، ننام كلنا، أنا وجيك وفوبي وبابا».

لم تجدها فكرة جيدة، لكن الإغراء في أن يستلقوا هم الأربعة في سرير واحد، زحف إلى ذهنها بمكر، مغلفاً قلبها المتألم.

بحثت عينا ماكس عن عينيها بتحفظ وحذر، وبتوسّل أيضاً، من أجل ولديه كما افترضت، فعادت إلى واقعها الراهن. لعلها ترغب في أن تستغرق في مشاعرها وردات فعلها حالياً، لكنها راشدة ويُفترض بها أن تكون قادرة على التعامل مع هذا كله.

حولت عينيها عن عيني ماكس، ثم أزاحت الأغطية وهي تقول لجوش بحذر: «ادخل السرير إذن، وسنكون جميعاً معاً».

صعد جوش إلى السرير وتبعه ماكس: «هل أنت مسرورة بهذا؟».

إنها طبعاً غير مسرورة. لكنها أشارت بعينيها إلى جيك بين ذراعيها ومن ثم إلى جوش المستند إلى صدر ماكس العريض، وقالت: «إنهما

كل ما يهمني. أنا لا أمانع، طالما هو ضروري لهما».

ينبغي أن يوضح كلامها هذا أن ما من أفكار أخرى في ذهنها. وتوتر فك ماكس، لكنه أومأ: «صدقيني، لو وجدت طريقة أخرى لتدبير أمرهما لاتبعتها».

وبشكل سخيف، شعرت بجرح في كرامتها. إذا كان ماكس يرى أن فكرة مشاركتها الفراش كريهة، فلِمَ أراد أن يرتبط بها لبقية الحياة؟

لأنها كانت هنا.

كان عليها أن تبقي هذه الحقيقة نصب عينيها، بدلاً من أن تستسلم لتخيّلات سخيفة عن الأسر السعيدة. كان عرض الزواج تصرفاً شاذاً، جنوناً مطبقاً من ناحيته... فهو لا يلتزم طويلاً مع النساء. ومن الأفضل لها أن تتذكر هذه الحقيقة من الآن فصاعداً.

عادت الرياح تعصف لربع ساعة تقريباً، ثم همدت إلى حد جعل خوف الطفلين يخف وسمح لهما بالعودة إلى النوم.

لكن فوبي لم تنم فقربها من ماكس بهذا الشكل خطير. ورغم بذلها الجهد كي تضع حداً لأحلامها الحمقاء، إلّا أنها كانت تشعر بوجوده في كل ذرة من كيانها.

قررت أن تبقى مستيقظة حتى تراه يغادر سريرها وتطمئن إلى أن الولدين نائمان. الواجب وحفظ الذات هما كل ما عليها أن تفكّر فيه حالياً. لكن ما سبق وحدث هذا المساء ترك أثره عليها فغلبها النوم مع الطفلين اللذين كان أحدهما في حضنها والثاني في حضن أبيه.

بدت في نومها باسمة راضية رغم كل جهودها لتحول دون استسلامها للنوم. فهذا كل ما أرادته في أعماقها.

* * *

مرّ الوقت من دون أن تنتبه حتى أيقظتها ضجة، لتكتشف أنها صادرة عن التلفزيون في غرفة الجلوس. وصلتها ثرثرة الطفلين من هناك، فأدركت أنهما نسيا كل ما يتعلق بعاصفة الأمس الرعدية.

وعندما تلاشى النعاس من عينيها اكتشفت أنها سعيدة وبشكل لا يصدّق. سعيدة ومسترخية ودافئة.

تنهدت وحركت يدها، وأجفلت وهي تدرك أن ما لمسته ليس وسادة أو غطاء أو فراش... فهذه الأغراض لا يمكن أن تتنفس برقة تحت لمستها أو تبعث مثل هذا الدفء. هذه الأغراض لا يمكن أن تجعل أنفاسها تنحبس في حلقها.

كان ماكس لا يزال معها في السرير، ورأسها يرتاح على صدره وليس على الوسادة. تأوهت في سرّها، وأغمضت عينيها وحاولت أن تقوّم وضعها وأثارت حركاتها آهة من ماكس فحاولت أن تبتعد عنه لكنه أمسكها بسرعة.

عليها أن تضع حدّاً لذلك، فماذا لو استيقظ واكتشف وضعهما هذا؟ حبست أنفاسها ووضعت كفها على صدره لكي تبتعد عنه، لكن شيئاً ما في سكونه نبهها قبل أن تفعل ذلك، ففتحت عينيها على اتساعهما وحملقت في أكثر العينين حرارة وتوهجاً.

- صباح الخير، أراك مصممة على مشاركتي السرير.

خرجت هذه الكلمات عميقة، بنبرة ناعسة، ومع ذلك كانت النظرة في عينيه بعيدة كل البعد عن النعاس، وأجابت: «لا لم أفعل».

جاء إنكارها بشكل آلي، لكن بعد أن نظرت جيداً رأت أن ماكس يحتل المكان الصحيح من السرير وهي من انزلق ليلتصق به.

- لا يفترض أن تبقى هنا. كان من المفترض أن تعود إلى غرفتك ليلة أمس بعد أن نام الولدان.

وحاولت أن تبتعد عنه لكنه رفع يده بكسل وأمسك يديها على صدره. وهذه المرة كانت نبرة صوتها شبه باكية فأخذت تدعو الله أن يثبّت قدميها ويمنعها من ارتكاب أيّ خطأ. يجب أن تكون أقوى من هذا كله، أقوى من ماكس. لا ينبغي أن تميل إليه في عقلها الباطن وكأنه الحدث الأعظم في حياتها.

- أدرك تماماً أنه كان عليّ أن أترك سريرك يا فوبي، لكن النوم غلبني قبل أن أتمكن من تحقيق رغبتك، وهذا كل ما في الأمر.

شعرت بكل كلمة قالها تهتز تحت يدها ما جعلها تتمنى لو تميل وتضع أذنها على صدره لتشعر بذلك الاهتزاز بحميمية. خلّصت يديها من بين يديه وابتعدت إلى الجانب الآخر من السرير بحركة نابعة من غريزة حفظ الذات، ثم قالت: «لا بأس إذن، يمكنك أن تذهب الآن. عليّ أن استحم ما يعني أن على شخص ما أن يراقب الطفلين. لعلهما شغلا التلفزيون بنفسيهما، وأخشى أن يكونا قد تناولا فطورهما بنفسيهما أيضاً».

- إنهما يثرثران مع ذلك التلفزيون منذ وقت طويل. إني واثق من أنهما في أحسن حال.

وكانت عيناه مستقرتين عليها بإغراء فقالت: «لكنني لست في أحسن حال».

لم تشأ أن تنزل من السرير بينما عينا ماكس الكسولتان تراقبانها، كما لا يمكنها المكوث معه هنا وعلى وجهه تلك النظرة الشيطانية.

تملكها شعور قوي بأن ماكس لا يفكر بعقلانية كعادته ما يعني أن عليها أن تفكّر عنهما، هما الاثنين.

وتنبّهت فجأة لما قاله ماكس وما يعنيه، هذا الكلام الذي أثبت أنها محقة في ظنها أنه ليس على عادته من التحفظ. وسحبت الغطاء إلى تحت ذقنها وهي تسأله: «منذ متى وأنت مستيقظ؟».

استرخت شفتاه بابتسامة عريضة: «مدة كافية للاستمتاع بالإحساس بك وأنت تشخرين قليلاً على صدري، ثم تعودين إلى وعيك بعد أن ايقظتك أحاسيسك وتلحظين وجودي».

- لم أكن واعية، ليس بالمعنى الذي تعنيه. ومن المؤكد أنني لم أدرك أنني كنت أشخر على صدرك.

- حسناً، قولي أيضاً إن اللعاب لم يسل من فمك.

أخذت تغمغم قبل أن تجد صوتها لتقول: «أنت تستغل وضعي، لم أكن أعرف أين أنا وماذا أفعل».

رفع حاجبيه مستمتعاً: «هل أنت خائفة من أن تكوني قد أبديت اهتماماً بي؟ خائفة مما يمكن أن تكوني قد فعلته أو قلته بعد أن غالبك النوم؟».

هذا ما يقلقها بالضبط، فبإمكانها أن تقول أي شيء... تكشف أسرارها أو أشواقها المزعجة التي حرصت على إنكارها أثناء اليقظة. واختطفت الوسادة من خلفها وقذفته بها فأصابت جانب رأسه: «انزل من سريري حالاً».

أبعد ماكس عنه الوسادة وقد غابت ابتسامته، لم يكن غاضباً لكن المرح فارقه ليحل مكانه شيء أكثر عمقاً وغموضاً: «أراهن على أنك ما كنت لتتصرفين بهذا الشكل لو أن برينت هو من في السرير معك».

- طبعاً لا، ما من سبيل.

وكأنه من الممكن أن تشاطر السرير بستانياً بسن طالب مدرسة. لمعت عينا ماكس بشكل أثار اهتمامها: «فهمت. ما من سبيل للمقارنة أليس ذلك؟».

- أبداً.

لم يبد على ماكس أنه فهم ما تعنيه، وتمنت لو يدع هذا الموضوع التافه كلياً ويخرج من سريرها وينتهي الأمر. كانت بحاجة لأن تتمالك نفسها ومشاعرها، ووجوده لا يساعد على ذلك.

- سنرى إن كان هذا يجعلك تغيّرين رأيك.

ومدّ ذراعيه الطويلتين يمسك بها، وقبل أن تتنفس كانت بين ذراعيه من دون أن يصغي إلى احتجاجها، وتخللت حرارة جسده قميص نومها الرقيق فأذابت عظامها.

تأوهت وهي تبادله العناق، وأدركت أنها ستكره نفسها لاحقاً بعد أن عجزت عن منع نفسها.

- ستنهي هذا الأمر مرة واحدة وإلى الأبد.

حاولت جاهدة أن تلتقط أنفاسها، أن تجد ما تقوله، أن تتمكن من تمالك نفسها: «ما الذي تعنيه؟».

كان جوابه زمجرة خافتة، وسرت سخونة في جسمها جعلتها ترتجف، وذهبت أفكارها بعيداً أشبه بدخان يبعده الهواء.

أوشكت الأمور أن تخرج عن السيطرة عندما نادى صوت طفولي من غرفة الجلوس.

- بابا... أنا جائع.

كانت فوبي على وشك أن تستسلم ما يجعلها تندم بقية حياتها، فشعوره مجرد رغبة جسدية، وعليها ألّا تنسى ذلك. فهي ليست امرأة غير عادية بالنسبة إليه، ووجودها هنا مجرد مصادفة. وتراجعت برعب عن حافة هذه الهوة التي أوشكت على أن تلقي بنفسها فيها، وأغمضت عينيها وتمتمت تشكر الطفلين الجائعين.

قال بصوت خافت: «سأطعمهما ثم أعود. يمكنهما أن يشاهدا فيلم الفيديو أو ما شابه».

زمت شفتيها بشدة ثم هزت رأسها، وبتصميم بالغ، أرغمت نفسها على التحديق فيه: «لن ننهي هذا الأمر بالطريقة التي في ذهنك، وكل ما يمكن أن يثبته ذلك هو أننا بالغباء نفسه».

ومرت لحظة ظنت فيها أن فكه سيتحطم لشدة التوتر الذي بدا عليه، ثم اندفع مبتعداً عنها، وأسرع خارجاً من الغرفة معبراً بصمته عن غيظه. لعلها اندست بماكس أثناء نومها لكن المسؤول عما حدث بينهما لاحقاً هو ماكس. وصاحت خلفه تقول: «برينت ليس سوى فتى صغير، يا ماكس. منذ سنة كان لا يزال في المدرسة».

فصاح يجيبها: «اهتمي بالولدين، فأنا سأستحم».

تمتمت: «حسناً، هذا أفضل أيها الشهيد!»

نزلت من السرير وهي تجرّ الملاءات معها، وتتمتم: «كما أنني لن

أعود إلى السرير إذا كانت هذه ستذكرني برائحته الدافئة الرائعة».

وألقت بالملاءات في زاوية الغرفة باشمئزاز. عليها أن تخرج من هذه الغرفة.

ارتدت أول ما وصلت إليه يداها من ملابس، ثم أسرعت إلى الطفلين. وعندما انتهت من إلباسهما وأعدّتهما، توقفت في المدخل وصاحت باتجاه الحمام: «سآخذ الولدين لتناول الإفطار في محل «بولاندا»».

لم تهتم بما إذا كان ماكس قد فهم ما قالته أم لا، كما جاءها جواب من خلف الباب غير واضح. لم تفهم ما إذا قال (نعم) أم (لا)، أم أين هو ذلك المكان؟ مهما كان جوابه فقد تجاهلته ودفعت الولدين إلى الخارج. أتراها تهرب؟ هذا يعود إلى نظرتها إلى الأمر. على أيّ حال، من امتيازات المربية أن تأخذ من هي مسؤولة عنه لتناول الفطور في الخارج أحياناً.

* * *

- هل تمانعون إذا ما انضممت إليكم؟

أمضى ماكس عشرين دقيقة تحت دوش الماء البارد، وخمس دقائق أخرى يتلقى مخابرة هاتفية لم يكن يريدها، لم يشأ الخروج من البيت وأخذ فوبي لولديه إلى الخارج لتناول الفطور قد زاده ضيقاً.

- بكل تأكيد.

لوحت بيدها من دون اهتمام، بينما بقيت يدها الأخرى على فنجان القهوة. وعندما ابتعدت إلى آخر المقعد لتفسح المجال لماكس لحق بها متعمداً وحشرها في الزاوية. لكن المتعة التافهة التي جناها من هذه الحركة الصبيانية لم تخفف من ضيقه.

رمقته بنظرة قاتلة أخفتها وراء ابتسامة مصطنعة، وعرضت عليه أن تطلب له فطوراً.

- لا، شكراً لقد أكلت في البيت.

وألقى على ولديه نظرة صاعقة لكنه سرعان ما تذكر أنّ هذه النظرة تخيفهما فحولها بسرعة إلى نظرة تساؤل: «هل تستمتعان بأكل الكعك؟».

- نعم، يا بابا.

- إنها لذيذة، يا بابا.

- هذا عظيم.

وعاد الولدان يغمسّان فميهما حتى أنفيهما بالكعك اللزج فيما نقر ماكس بأصابعه على المائدة محاولاً أن ينظر إلى فوبي وهي ترشف القهوة ببطء مثير. كان من المستحيل أن يتجاهلها، فمجرد وجودها قريبة منه جعله يشعر بأنه يريد أن ينتزعها من مكانها ويأخذها بين ذراعيه.

رفضها له ملأه إحباطاً، كما شعر بجرح في كرامته. تباً لها! حتى أنه لم يفهم ردة فعله، فشعوره بعدم الرغبة في الابتعاد عنها حالياً يكاد يجنّنه.

- عليّ أن أذهب إلى «أديليد».

وضعت فنجانها على المائدة.

- لم أفهم.

وأخرجت من حقيبتها منديلاً معقّماً مسحت به وجهي ويدي ولديه بسرعة، ثم اقترحت عليهما أن يذهبا ليلعبا في الفناء الخلفي للمطعم، قائلة إنها ستلحق بهما بعد لحظات: كانت الألعاب عديدة وهي موضوعة بشكل يسمح برؤيتها من الباب والنوافذ الزجاجية، وسرعان ما أومأ الولدان ثم أسرعا إلى هناك.

- تلقيت اتصالاً من محامي ماريلين. لن يتطلب الأمر أكثر من يومين أو ثلاثة لكن ثمة أمور عليّ أن أحسمها.

- آه فهمت.

وخفضت بصرها وركزته على غطاء المائدة القذر، قبل أن تعود

فتواجهه: «متى؟».

- الآن، لقد حزمت أمتعتي، وهي في السيارة.

- سأبذل جهدي في خدمة الطفلين في غيابك.

- لا أريد أن...

وسكت فقالت: «لا بأس! أنا أتفهمك أنت مضطر للذهاب».

وقفت وأحضرت الولدين بعد أن وعدتهما باللعب طويلاً على الرمال عندما يصلان إلى البيت. وقف الجميع في الخارج بجانب سيارة ماكس، وقالت للولدين: «أبوكما مضطر للسفر بعيداً، لثلاث ليالي نوم. امنحاه قبلة وقولا له وداعاً، وبعد ذلك نعود إلى البيت».

دفعت الولدين إلى الأمام بيديها برفق، وانحنى ماكس ليتلقى قبلتين طويلتين صبيانيتين. لم يشأ أن يترك جوش وجيك الآن، كما لم يشأ أن يفعل هذا عندما يعود إلى العمل أيضاً. لكن أن يفارقهما. برغبته أفضل من أن يتوسلا إليه لاحقاً كي يفعل هذا، أليس كذلك؟

انتصب في وقفته، ثم وضع يديه في جيبه: «سأتصل بكم».

- سأتفهم إذا لم تفعل.

ما الذي تعنيه بقولها هذا؟ لا تزعج نفسك بالاتصال؟ هذا ما فهمه من هذا. وعندما صعد إلى السيارة، وضعت فوبي الولدين في سيارتها الصغيرة وثبتتهما في مقعديهما. لم يشأ ماكس أن يظهر ما يشعر به من إحباط، فلوّح لهم بيده من دون أن ينظر إليهم، ثم اندفع في طريقه.

٩ ــ زائرة من بعيد

لم تشعر فوبي بمثل هذا الملل منذ... حسناً، منذ وقت لا تستطيع أن تتذكره. لقد أمضت وقتاً صعباً منذ وصولها إلى «ماونتين جيم»، فهل اهتم بها أحد؟

كلا، كان عليها أن تواجه المشاكل وحدها، كالعادة. وأثناء مواجهتها لذلك، لم ينفك ماكس يتشاجر معها، ويغريها كي تتزوجه. لولا وجود الولدين لما اهتمت بهم جميعاً!

مراجعة هذه الأمور في ذهنها جعلها تريد أن تنفث ناراً. إذا كان ثمة رجل لا يستحق ذرة من اعتبارها، فهو ماكس ساوندرز.

لقد ذهب لحسم قضية مزرعة ماريلين. وقد شعرت بالإشفاق عليه وهي تراه مضطرباً، وكأنه لا يريد أن يتركها هي والولدين. وجعلتها مشاعرها المتضاربة، ترغب في أن تعرض عليه بأن ترافقه مع الولدين... أي حل يبقيهم جميعهم معاً. يا لحماقتها! لحسن حظها أنها لم تستسلم لمشاعرها في السرير هذا الصباح.

لكنها تساءلت الآن عما دفعها إلى الندم لعدم قيامها بذلك؟ السبب هو «فيليسيتي دانفرس». وأدركت أن فكها عاد إلى التوتر فحاولت أن تجعله يسترخي. بعد رحيل ماكس بيوم، برزت المرأة على عتبة الباب حاملة جهازه الكومبيوتر النقال ومتاعها... وعندما قالت فوبي لها إن ماكس غير موجود، أجابت: «لا بأس، كنت أعمل بسرعة مخيفة، ويومان أرتاح فيهما سيجعلاني بحالة حسنة قبل عودة ماكس. وفي

الواقع، إنه توقيت ممتاز».

كانت قد صرفت سيارة الأجرة.

ثم دخلت ببطء وتشامخ.

كانت لتحتمل الأمر... حسناً، ليس تماماً، ولعل فوبي تقبلت الأمر... لكن المسألة لم تقف عند هذا الحد...

عند سؤال فوبي المهذب عن سبب هذه الزيارة، أجابت فيليسيتي: «أنا هنا لأقوم بعمل ماكس اليومي، يا حبيبتي. إنها خدمة لن يستطيع أن يرفضها... ثم، حسناً...».

وسكتت بخجل ثم عادت تتابع: «وبعض الأمور الأخرى التي لن يقاومها. والآن أحضري لي كوب شاي من فضلك، ثم كفي عن إزعاجي. ليس لدي وقت لإعطاء تعليمات للخادمة».

كبحت فوبي رغبتها في أن تضربها على رأسها. وعندما قالت لها إنها مربية وليست خادمة، رفعت هذه حاجبيها وقالت: «لا فرق بين الوضعين. كوني فتاة طيبة وأحضري الشاي والأمتعة من الخارج».

ولا حاجة للقول إن أمتعتها بقيت في الخارج إلى أن أدخلتها فيليسيتي بنفسها. لكن فوبي حضّرت الشاي لأنها في الأساس إنسانة طيبة للغاية. ذكّرها وجود المرأة في البيت بطبيعة ماكس الحقيقية. وكيف لا؟ كانت فيليسيتي مثال المرأة التي يرغب فيها ماكس، وقد لا يكون لدى هذه المرأة الوقت الكافي لإعطاء تعليمات للخادمة، لكن لديها الوقت لتعذيبها. وقد عمدت إلى ذلك دون أدنى اعتبار لمشاعر فوبي التي جرحتها عند حضورها، ولم تفعل شيئاً لاحقاً للتخفيف عنها أو تحسين الوضع بينهما. أرادت فيليسيتي أن تعرف كل شيء عن ماكس، أسلوب حياته وعاداته. لم تبد اهتماماً عندما أخبرتها فوبي عن ولديه.

يبدو أن هذا الخبر لم يطرق سمع فيليسيتي من قبل. وبدا واضحاً أن فيليسيتي لا تنوي أن تدع وجود الولدين يقف في طريقها. قد لا

تكون زيارتها هذه بناءً على موعد سابق، لكن من الواضح أنها هنا لتنشب مخالبها في ماكس وهي واثقة تماماً من أنها ستنجح في ذلك. صرفت فوبي بأسنانها وحاولت أن تتعقّل فحرصت على البقاء خارج المنزل مع الولدين، ما أبقى فيليسيتي في المنزل وحدها.

كان النهار حاراً خانقاً، أشبه بالجو داخل البيت.

قالت تخاطب جوش وهي تشير إلى زر هناك: «حاول أن تضغط على هذا الزر يا جوش. هذه هي الطريقة».

وأخذت تنظر إلى الصبي وهو يضغط الزر ثم يصيح مبتهجاً عندما سار القطار الذي يعمل بالبطارية على سكته، فيما جلس جيك بعيداً بين ألعابه المطاطية. وتمنت فوبي لو يمكنها أن تقنع المرأة التي في منزل ماكس بالذهاب إلى العالم الآخر.

أسوأ ما في الأمر هو أن فيليسيتي تملك كل ما ينقص فوبي، فهي امرأة عاملة بالغة الجاذبية مذهلة الجمال والذكاء، تعرف بالضبط ما تريده وكيف تخطط للوصول إلى مبتغاها. وبالمقارنة، شعرت فوبي بأنها غبية ومزرية. وتعالى ذلك الصوت الخشن الذي يهيج الأعصاب: «أنتم، يا من هناك، أظنني أخبرتكم أنني أريد إبريق شاي».

تمتمت فوبي: «لا بد أنها سمعتني أفكر فيها».

وأطبقت أسنانها بشدة لكي تمنع نفسها من الصياح بكلام لا ينبغي التفوه به. ولفت انتباهها صوت سيارة قادمة. إنه ماكس، ها قد وصل أخيراً. أخذت فوبي تفكر في كل تلميح أو تعريض قذفتها به فيليستي طيلة اليومين الماضيين في موجة كادت تخنقها. تذكرت كيف قالت فيليسيتي إنها ستنقض على ماكس حال نزوله من سيارته. ورأت فوبي، وهي تتصور ماكس وفيليسيتي معاً، أن ماكس ما هو إلّا دودة، أفعى، ضفدع سام على دودة على أفعى.

لقد طلب الزواج من فوبي لكنه لم يكن صادقاً في ذلك ولا بد أنه

شعر بالارتياح عندما رفضت عرضه. جلّ ما أراده ماكس منها هو أن تستسلم له، ومع ذلك تركت نفسها تقع في غرامه، وهي ما زالت تحبه رغماً عنها. وانتظرت عابسة ثم قالت للولدين عندما أوقف سيارته: «جاء والدكما».

هتفا بفرح ثم ركضا يهبطان الدرجات، وتبعتهما هي ببطء مصممة على لعب دور المربية، ولو قتلها ذلك. لا يمكنها أن تدع ماكس يدرك مدى كرهها لفكرة اجتماعه مع فيليسيتي. ليس لديها من خيار آخر سوى القيام بدورها على أفضل وجه. تصرّفت بشكل ممتازا إلى أن استدار ماكس من خلف السيارة حاملاً أمتعته ورآها فارتسمت على شفتيه إبتسامة بالغة الحلاوة، ما جعل فوبي تنسى للحظة كل ما يحيط بها وتحدق في وجهه، وقد عاد إليها كل الشوق الذي ظنت أنه انتهى وتلاشى.

لِمَ بدا لها بهذا الشكل؟ لِمَ لم يبق متمالكاً نفسه بدلاً من أن ينظر إليها بهذا الشكل؟

إنها مخيلتها التي تصور لها أنه سعيد لرؤيتها. لقد ابتسم لأنه أمل أن تساعده في حمل أمتعته إلى الداخل. نعم، فهذا ما تظن فيليسيتي أنه يناسبها.

أخذ الولدان يضحكان ويرقصان، لكن ماكس وقف ينظر إلى فوبي برغبة لم يحاول أن يخفيها.

هذا الضفدع... الأفعى، الدودة... كيف يمكنه ذلك؟

وتقدم منها: «فوبي لقد افتقدتك و...».

- لديك زائرة.

كانت الكلمات مشحونة بالغضب حتى كادت فوبي لا تعرف صوتها. كانت تعلم أن وجهها يُظهر من دون شك كل الاحتقار الذي تشعر به فضلاً عن اشمئزازها البالغ من نفسها...

كيف تأثرت بماكس ولو للحظة بينما هي تعرف حقيقته؟ ماكس

ساوندرز لا يمكن أن يكون مخلصاً في حياته.

وبدت الحيرة على وجه ماكس: «ما الذي تتحدثين عنه؟».

استدارت فوبي وأخذت ترتقي الدرجات إلى الشرفة: «ألا يمكنك أن تخمّن؟ دعني أصفها لك. ساقان طويلتان؟ أبي يملك العديد من متاجر المجوهرات؟».

أمسك ماكس بذراعها يديرها إليه: «فيليسيتي دانفرز؟ هل قلت إن فيليسيتي هنا؟».

- ومنذ يومين طويلين للغاية.

ونفضت ذراعها من يده وتابعت سيرها: «أدرك أن لديك أسئلة كثيرة لكن حاول ألا تمددها على السجادة وأن تجد لها مكاناً خاصاً بها. ثمة طفلان سريعا التأثر في المنزل».

ومربية غاضبة للغاية!

ألقى عليها ماكس نظرة صاعقة: «ما الذي تتحدثين عنه بحق جهنم؟».

- هذا طلب بسيط يا ماكس، وأنا واثقة من أنك ستنفذه إذا فكرت فيه.

أخذ فك ماكس يرتعش ونادت هي الولدين ليدخلوا إلى المنزل وعلى فمها ابتسامة زائفة وهي تعدهم بحوض حمام مليء بفقاعات الصابون وبعشائهما المفضّل ما داما كانا طيلة النهار مهذبين. وعندما تبعهم ماكس رمقته بنظرة حقد وهي تتابع قائلة: «وسيقرأ لكما بابا حكاية قبل النوم. أنا واثقة من أن بإمكانه أن يتدبر بعض من الوقت الذي سيمضيه مع زائرته، من أجل ولديه الحبيبين».

وقبل أن يتمكن ماكس من مناقشتها، أو يخبرها بأنها تجاوزت الحدود مرة أخرى، تكلمت الضيفة: «ماكس، يا أعز الناس».

ونهضت فيليسيتي، بشعرها الأشقر وساقيها الرشيقتين اللتين لوحتهما الشمس، من جلستها المسترخية على الأريكة في غرفة

الجلوس ثم اندفعت لتلقي بنفسها على صدره. نصحت فوبي نفسها بعدم الاهتمام وهي تستمر في سيرها، متمنية لو بإمكانها أن تركل هذه المرأة على ساقها ثم تعود لتركل ماكس أيضاً.

آخر ما رأته قبل أن تغلق باب الحمام بعنف خلفهم، هو يدا ماكس ترتفعان لكي تقبضا بقوة على ذراعي فيليسيتي. لا شك أنهما الآن متعانقان، ولم تستطع أن تقف لترى هذا المنظر.

تركت المياه تتدفق وهي تحدث نفسها بأنها لا تهتم بما رأت مثقال ذرة. إذا أرادت فيليسيتي أن تطلق لنفسها العنان مع ماكس، فهنيئاً لها! ففوبي، ليست بحاجة إلى أي من هذا وهي سعيدة في وحدتها.

وفكرت في أن تهرب بأقصى ما يمكنها من السرعة لكنها عادت فأخمدت هذه الرغبة. لديها عمل تقوم به، وستقوم به، وإلا بدا الأمر وكأنها تهتم بما يفعله ماكس، وهذا ما لا تريده!

* * *

- ماذا تفعلين هنا يا فيليستي؟

فك ماكس أصابعها المتشابكة ثم أبعدها عنه، محاولاً أن يتحكم بما يشعر به من إحباط.

كانت فوبي غاضبة، كما أنه لم يجد وقتاً ليحيي ولديه قبل أن تأخذهما بعيداً عنه.

قالت بدلال وهي تدسّ إصبعها داخل ياقة قميصه عابثة: «أظن أنّ بإمكانك أن تقول إنني رسول خاص، جاسوسةً!»

كانت عيناها تشعان جشعاً وأنانية لم تعجبه على الإطلاق. وقال وهو يتراجع إلى الخلف: «رسول لماذا؟».

ردّت رأسها إلى الخلف ضاحكة: «لأعمال أبي طبعاً، إذا سارت المفاوضات بشكل حسن في اليومين القادمين، فسأكون قادرة على أن أقدم لك عرضاً يرضيك تماماً».

لم يشأ ماكس أن يفاوض طوال يومين، ولا حتى طوال ساعتين

كما لم تكن هذه هي العودة إلى البيت التي أرادها. كما أن غضب فوبي غير منطقي . هذه المرأة الغاضبة المشاكسة التي سجنت نفسها لتوّها في الحمام مع الولدين، لم تكن بالضبط ما توقع أن يرى. لعله مجنون ليسرع عائداً إلى البيت يقوده شعور بأنه يريد أن يكون حيث هي . هذا جنون. يا لجهنم! لقد شعر بعدم الاستقرار بعيداً عنها وكأن بينهما عملاً لم ينهياه.

أي عمل هو ذاك الذي لم ينتهِ ؟ أهي مسألة الزواج؟ لقد أعطت رأيها بذلك بوضوح وانتهى الأمر. بدا واضحاً أنها لا تريد أيّ علاقة معه، فماذا تريد هذه المرأة إذن؟ بعض من دمه؟ التفرد بعمله ووضع اليد على مبلغ ضخم منه. لكن لا . . . وأدرك ، بعد إمعان النظر أن ما يفكر فيه هو أقرب إلى وصف ما تريده فيليسيتي منه.

- ماكس، حبيبي، هل سمعتني؟

وهمّت بأن تعانقه لكنه تجنبها، لم يكن يريدها هنا.

- نعم، سمعتك. إنك تتحدثين عن شركتكم واهتماماتها ما وراء البحار.

فقالت باسمة بمكر: «هذا صحيح،ثمة الكثير أقدمه لك، هذا إذا كان الجو مناسباً لعقد اتفاقية».

- اكتبي لي العرض وسندرسه، ويمكنك الذهاب.

لقد أفزعه حضورها إلى هنا معتبرة وكأنها في بيتها. هذه الوقاحة البالغة أخرسته تماماً.

لم تعلمه فوبي بحضور فيليسيتي عندما اتصل بها مرتين. وكانت من الجفاء بحيث قرر بعد الاتصال الثاني،ألّا يتصل مرة أخرى مفضلاً أن يتحدث معها شخصياً عند عودته إلى البيت.

عندما ابتسمت له فيليسيتي مرة أخرى. . . ابتسامة ماكرة أظهرت بوضوح اقتناعها أنه سيخضع لإرادتها بسهولة، فثارت أعصابه. لا وقت لديه لحيلها حالياً: « أنطقي بعرضك ولا داعي لتضييع الوقت».

حوّل الغضب ملامح فيليسيتي إلى قناع بشع للحظة ثم عادت تهز رأسها رافضة وهي تبتسم ابتسامة تسامح: «كل شيء في وقته يا ماكس. أسرعت إلى هنا مباشرة بعد جولة دولية محمومة استغرقت أسبوعين، وما زلت مشغولة بوضع تفاصيل العرض الذي ستقدمه شركتنا لك. أخشى أن عليك، أن تتحملني فترة أطول إذا أردتنا أن نتحدث عن العمل».

أخذ ماكس يزن خياراته، هل يلقي بها خارجاً ويخسر الصفقة، أم يبقيها هنا ليتأكد من ربحها؟ كم ستزعجه خلال أربع وعشرين ساعة أخرى؟ كما أنّ الذنب ليس ذنبه إذا كانت فوبي غاضبة، فهو لم يستدع فيليسيتي إلى هنا. ومع ذلك، كان عليه ان يكبح شتيمة قبل أن يسألها: «هل أبوك. .؟».

- لقد رحل إلى أحد أماكن عزلته، وهو لا يرد حتى على الاتصالات المستعجلة للحالات الطارئة، لكن هذا لا يشكّل أي فرق في وضعنا. أعلم أنك ستسر في. . . التعامل معي.

تصاعد غضب ماكس: «أنا أحب مناقشة شؤون العمل معك».

إذا ظنت فيليسيتي أنه يهتم بشيء آخر غير العمل معها، فسيخيب أملها. واستدار يريد أن يبتعد عنها، لكن ضجة خلفه أنبأته بخروج فوبي وولديه من الحمام، فوقف. ويبدو أن فيليسيتي فهمت من ذلك إشارة لتلقي بنفسها عليه ففعلت. وبينما قبض على ذراعيها ليبعدها عنه، استدار الصبيّان حولهما ثم تسللا إلى غرفتهما. أما فوبي فألقت عليه نظرة اشمئزاز ثم أسرعت في سيرها، متجنبة الاقتراب منه، لكنه هتف بها بخشونة: «فوبي هل لك أن تنتظري لحظة من فضلك؟ أريد أن أتحدث إليك عن الولدين».

رفعت فوبي أنفها في الهواء وحملقت فيه وكأنها تتحداه : «لقد افتقداك ولا أدري لماذا، لكنهما كانا بأحس حال. اعتنيت بهما كأحسن ما يكون بالرغم من الفوضى التي حلت في البيت مؤخراً».

أراد ماكس أن يوضح لها أنه وبالرغم من اهتمام فيليسيتي الفاضح به، لا يهتم هو بها، وأنه لم يدعها لزيارته لكنه عاد وتساءل فجأة عما يجعله يزعج نفسه بذلك. كانت فوبي تتسرّع بالإستنتاج كعادتها فلِمَ يهتم؟ سبق وأوضحت أنها لا تريد أيّ علاقة معه، وبالتالي، لا علاقة لها بما يحدث بينه وبين فيليسيتي.

- هذا حسن جداً، انا مسرور لأن الولدين في أحسن حال.

ما زال ينوي التخلص من فيليسيتي في أقرب وقت لكن تحقيق هذا بدا له أصعب مما يظنه.

في اليوم التالي تأخرت فيليسيتي في النوم إلى حد أنه لم يجد فرصة للتحدث إليها إلا بعد الغداء. وعندما طلب أن يعقد اجتماعاً معها وافقت على الفور، ثم أمضت معه الساعة والنصف التالية في مكتبه تتحدث عن كافة الأمور ما عدا العمل.

قسم كبير من حديثها دار حول رغبتها في تعزيز موقعها وفي اختيار الرجل المناسب لذلك. وشعر ماكس وكأنه يضرب رأسه بجدار، وشكر الله، في سره، عندما قالت إنها بحاجة إلى تخصيص بعض الوقت لاقتراحها هذا، ثم تتفرغ له لتعرضه عليه. وهكذا، أمضت طوال فترة بعد الظهر في إجراء اتصالات هاتفية وهي تسير في كافة أنحاء البيت وكأنه لا أحد سواها فيه. كانت قادرة على أن تقتل المرء إزعاجاً، لعل غضب فوبي له ما يبرره، لكن هذه الفكرة لم تدم طويلاً، لأن فوبي لم تكن مستعدة لمنح ماكس ساعة واحدة من وقتها. فإذا دخل إلى الغرفة التي تجلس فيها فوبي، حملقت فيه وسألته عن حالهما هو وفيليسيتي بلهجة تلمح فيها إلى رجائها بأن يختنقا معاً، ثم تندفع مع الولدين إلى مكان آخر.

أغاظه سوء ظن فوبي به، وقرر أن يحبس نفسه في مكتبه. ربما إذا ما تجاهل تقرّبها إليه، فسوف تدرك أنها تضيّع وقتها وتركّز على مشروع العمل بينهما.

لكن صوت بكاء الولدين التعيسين جعل ماكس يعود إلى غرفة الجلوس حيث دخل الغرفة ليرى طفليه شاحبين وأنفيهما المحمرين فتملّكه الفزع سريعاً. لم يبكيا منذ فترة طويلة ما جعل ماكس ينسى كم كان يشعر بالتوتر لبكائهما. وكانت فوبي تحاول أن تلعب معهما لعبة بسيطة، فيما جلست فيليسيتي على الأريكة بعجرفة وكبرياء تنظر إلى المشهد تحت أنفها. لِمَ لا تذهب إلى مكان آخر إذا كان هذا يشعرها بالإشمئزاز؟ أو تنهي عملها وتترك المنزل نهائياً؟ وهذا هو الأفضل؟؟

تقدم ماكس من فوبي وقال بهدوء: «ما المشكلة؟».

- ردت فوبي عابسة: «إنهما يعانيان من الزكام».

لكن الحنان بدا على وجهها حين التفتت إلى الصبيين.

- أتريدينني أن أصحبهما لرؤية الطبيب؟

لم يكن يعرف كيف يتدبر أمره مع الأولاد المرضى في مثل هذا العمر، وكم يبدو الزكام مخيفاً لمن هو في الرابعة من العمر...

- بقدر ما أتمنى لهما سرعة الشفاء، إلا أن لا فائدة من ذلك.

بدا صوت فوبي ضعيفاً لأول مرة منذ أيام: «سيقول الطبيب إن الزكام سيزول بعد يوم أو يومين ويقترح أي دواء لدينا في البيت، وكنت قد لاحظت أن الأدوية قليلة في البيوت هنا، فخزّنت ما ظننته سيكون نافعاً أثناء خروجي للتسوّق».

لطالما فكرت في تفاصيل لم يفكر فيها ماكس. إنها أفضل منه في العناية بطفليه. لكن ماكس حاول أن يمد يد العون: «سأساعدك في العناية بهما، إذن».

أومأت فوبي فهذا خير من لا شيء. نظر إليها برقة بالغة لحظة طويلة، ولم تكن هي تنظر إليه، فأخذ يجول بنظراته على جسمها إلى أن توقف عند شعرها الأشعث السخيف الشكل. لقد اشتاق إلى هذا الشعر، اشتاق إليها كلها، اشتاق كثيراً، أكثر من أن يحتمل خلافهما على أمور تافهة ناتجة من سوء تفاهم. لم يشأ أن يدعها تعتقد أن ثمة

علاقة بينه وبين فيليسيتي، . وقرر أن يفسر الأمر لها ويجعلها تعلم أن كل ما يهمه بالنسبة إلى فيليسيتي هو العمل. لعله سيتمكن من إرساء الأمور مع فيليسيتي ثم يتخلص منها ويعيد الأمور إلى نصابها مع نهاية النهار. لكن عليه أولاً أن يساعد فوبي ثم يتحدث إليها على انفراد ليشرح لها حقيقة الأمر.

لم يتمكن من تحقيق أي من الهدفين في ذلك النهار. . وبعد أن أمضى ماكس ليلة مرهقة في رعاية جيك، بينما أخذت فوبي جوش إلى غرفتها لترعاه، تساءل عما إذا كانت الأمور ستعود إلى طبيعتها مرة أخرى . وفي اليوم التالي راحت فيليستي تتقاعس مجدداً عندما طلب منها الانتهاء من الصفقة، وكتم ماكس رغبته في أن يخبرها كم هي أنانية وعديمة التفكير. وركّز اهتمامه على ولديه إذ بدا واضحاً أن فيليسيتي تلعب لعبة ما ولم يعلم ما الذي ستستفيده من وراء ذلك، رغم أنه رآها مرتين ترمق فوبي بنظرات قاتلة. وحاول ماكس جهده أن يتمسك بالهدوء. لكن عندما أخذ أحد ولديه يبكي للمرة المائة ذلك الصباح، لينضم إليه أخوه على الفور، تدفقت الكلمات من فمه من دون وعي منه، فقال مخاطباً فوبي: «هل انت واثقة من أنهم لن يستقبلوهما في مركز العناية اليومية؟ يفترض أن يبدآ هذا اليوم».

اقشعر جسم فوبي إزاء لهجة ماكس الخشنة. كانت متعبة إذ صبرت على فيليسيتي وهي تغازل ماكس بنظراتها ولمساتها، مبدية بوضوح أنه يذوب حباً بها بالرغم من تظاهره بالرزانة والحذر في وجود فوبي، كانت فوبي تدرك ما يدور خلف باب ذلك المكتب المغلق.

والآن، ها هو يطرح هذا السؤال! هذا السؤال الذي لا يتعلق أبداً بمصلحة وحاجة الولدين.

- أريد أن أذهب إلى مركز العناية اليومية.

جاء هذا الطلب من جوش بينما فوبي تمسح أنفه مرة أخرى. وضرب الأرض بقدمه وهو يتابع: «ضجرت من هذا البيت».

فقالت فوبي وهي تحتضنه، رامقة ماكس بنظرة جانبية غاضبة: « أعلم أنك متلهف للذهاب يا جوش، لكن لا يُسمح للأولاد بالذهاب إلى مركز العناية وهم مصابون بالزكام كيلا ينقلوا العدوى إلى الأولاد الآخرين. هل نسيت أنني أوضحت هذا من قبل؟»

من المؤسف أن ماكس لم يسمع هذا الكلام حينذاك، وارتجفت شفة جوش السفلى: «لنخرج إلى الحديقة ولنلعب إذن».

بدا الإحباط في نبرة صوتها وهي تقول :«السماء تمطر».

السماء تمطر منذ استيقظوا في الصباح، ما أشعرها بالتعاسة: «أنسيت أنني قلت إننا لا نستطيع الخروج إلا بعد أن يتوقف المطر؟ إذا ابتلت ملابسك فسيصبح الزكام أسوأ».

قالت فيليسيتي بحلاوة من حيث هي جالسة على الأريكة: « يا للأحباء الصغار، أما من شيء يمكن أن تفعليه لهما ويريحهما؟»

- أنا أبذل جهدي.

وصرفت فوبي بأسنانها وهي تقاوم رغبة ملحة في أن تدفع جيك، نحوها لتنّظف أنفه بالمناديل الورقية لكن الطفلين لا يستحقان أن يتألما نتيجة غضب فوبي، وهذا وحده ما منعها.

ما الذي يجده ماكس في فيليسيتي؟ أم أن الحب يعمي؟ كان هذا أول ما تبادر إلى ذهن فوبي. لكن هذا لا ينطبق على ماكس. . . هي الرغبة الجسدية التي تجعل الرجال حمقى.

تمتمت فوبي بذلك بصوت خافت فقالت فيليسيتي: «المعذرة. . . لم أسمع؟».

- لا شيء.

وتحولت فوبي عنها وهي تتساءل عما يمكنها أن تفعل ليبقى الولدين سعيدين .

اقترحت فيليسيتي: « ما رأيك في أن تأخذيهما إلى السينما، أو التسوّق، أو أي شيء آخر؟»

فأجابت فوبي وقد فرغ صبرها: «أو ربما نسمح لهما بالراحة في بيتهما لكي يستعيدا صحتهما».

وأمسكت بيد كل من الولدين وضغطت عليهما بحنان ثم سارت بهما بلطف بالغ إلى خارج الغرفة وهي تقول لهما مداعبة: «لنرى ما يمكن أن نجده في غرفة نومكما. ربما حكاية حلوة أو شيء ما».

وعندما ابتعدت سمعت ماكس يتوجه إلى مكتبه. ثم صوت إقفال الباب، وتساءلت كيف تتقبّل فيليسيتي أن تترك وحدها مرة أخرى؟ لكن هذه ليست مشكلة فوبي. وطلب الطفلان أن يسمعا حكاية الفيل ساغي باغي، وكانت فوبي قد تركتها في غرفة الجلوس، فتركت الولدين على كره منها، وعادت لتستعيد الكتاب.

- ماذا تفعلين هنا؟

فوجئت فوبي بزمجرة فيليسيتي، وأجابت: «آخذ كتاباً. رعاية أولاد ماكس تتطلّب مني أحياناً أن أنتقل من غرفة إلى غرفة في المنزل»

واتجهت إلى سلة ألعاب كبيرة في الزاوية، آملة أن تجد الكتاب بسرعة لتعود أدراجها، فقالت فيليسيتي هازئة: «أنت تظنين نفسك رائعة، أليس كذلك؟ إذ تدّعين الاهتمام بذينك الولدين المفزعين».

ما مشكلة هذه المرأة؟ واستدارت فوبي وقد ثار غضبها. ووقفت تواجه فيليسيتي وظهرها إلى الممر، ونظرها مسمّر على وجه المرأة: «لا أدري ما الذي جرى لك فجأة لكن علاقتي بجيك وجوش ليست من شأنك».

بأي وقاحة تنتقد هذه المرأة علاقتها بالولدين؟ بأي وقاحة؟ لم يكن لردة فعل فوبي العنيف أي مبرر وهي تعلم ذلك لكنها لم تستطع أن تدع الأمر يمرّ.

- لا تظني أنك ستبقين هنا طويلاً لرعايتهما.

ورفعت فيليسيتي شعرها عن كتفيها بحركة جعلت فوبي تريد أن

تقتلع عينيها بأصابعها، بينما تابعت تقول: «لن تبقي حالما أسيطر على الأمور في هذا البيت».

- سأبقى هنا طالما اتفقنا، أنا وماكس على ذلك. وإذا كنت تظنين أن ماكس سيلتزم بأيّ علاقة دائمة يا فيليسيتي، فأنت تخدعين نفسك، لأنه لا يحب الالتزام، لا بد أنك أدركت ذلك.

هذا ما ظنته فوبي حتى هذه اللحظة، لكن الشك بدأ يراودها. هل توّصل فيليسيتي وماكس إلى اتفاقية ما؟ هل قرر ماكس أن يجعل فيليسيتي جزءاً من حياته بشكل ما؟

- في الواقع، أنت الحمقاء.

واعتدلت فيليسيتي في جلستها ثم وقفت وواجهتها: «أنت مغرمة بماكس بينما هو يراك مصدر إحراج له».

هل تكلم ماكس عنها وتحدث عنها إلى هذه المرأة هازئاً؟ لكنها لا تحب ماكس. وهذا لا يعني أنها تحب ماكس أصلاً، وإذا ظن أنها تحبه فهو واهم.

هذا التأكيد الصامت لم ينفع في تخفيف الخزي الذي هدد بأن يغمرها، وسمعت صوت خطوات قريبة منها لكنها كانت من الاضطراب بحيث لم تستدر لتتحقق من القادم: «أنت لا تعرفين شيئاً عني وعن مشاعري».

نظرت فيليسيتي إليها شامخة الرأس وكأنها تفحص جرثومة: «لا؟ أنت شفافة كالزجاج بتحديقك الغيور وجهودك الواضحة للتأثير فيه من خلال طفليه المزعجين».

- إنهما ليسا مزعجين. كيف تجرؤين على أن تصفيهما بذلك؟ الصبيان يستحقان كل دقيقة أمضيها معهما، والعناية بهما هو أنفع ما قمت به في حياتي، ولن أتخلى عنهما بسببك.

حماستها وهي تقول هذا جعلتها تلهث. لقد تقبلت فوبي هذه الحقيقة الآن، وما من عودة عنها، حقيقة أنها مولعة بجيك وجوش،

وإذا كان عليها أن تنفصل عنهما يوماً ما، فهذا يعني أنها ستنفصل عن جزء من كيانها. كان شعورها نحو الصبيين كشعور الأم نحو الطفل الذي تنجبه. لم تعد تشعر بالفراغ لأنها لا تستطيع أن تنجب بل هي تشعر لأول مرة بفراغ عميق كلما فكرت في فراقهما. وقالت فيليسيتي وهي تشير إليها بإصبعها: «جلّ ما يحتاجه الأمر هو أن أجعل ماكس كاللعبة في يدي، فيفعل كل ما أريده».

كان على فوبي أن تبتعد، أن تدير ظهرها بكل بساطة وتغادر الغرفة، لكنها لم تستطع. كان عليها أن تواجهها حتى لو أن تخيّلها لهما معاً يجعلها تريد أن تصرخ، وتحطم ما حولها.

- لكن ما الذي ستطلبين منه عندما يصبح تحت تصرّفك؟

- أولاً، أن يطردك من هذا البيت، ومعك طفليه المزعجين. ثمة مؤسسات تستقبل الأطفال غير المرغوب فيهم. وفي الوقت المناسب، أنا واثقة من أنني سأتمكن من إقناعه بأن يتخلص منهما معاً، وفي وقت واحد. لا أحد يرغب في ابن زنا فكيف إذا كانا اثنين؟

كان لمثل هذا القول وقعه على فوبي فوضع الولدين يشابه تاريخها هي أيضاً. وتنفست بعمق محاولة أن تستعيد هدوءها.

- لا أريد أن أبتعد.

- لماذا يا بابا؟

التفتت فوبي بذعر، لترى الطفلين في الممر على وشك البكاء بينما ماكس يقف خلفهما مباشرة، وقد وضع يديه على كتفي طفليه وهو يقول لهما: «اذهبا وانتظرا في غرفتكما».

عندما تحرك الطفلان ليمتثلا لأمره، التفت هو إلى فوبي وقال مطبق الأسنان والغضب يحفر خطوطاً عميقة في وجهه: «انتبهي إلى الطفلين من فضلك».

كان صوته هادئاً لكن ملامحه بدت بصلابة حجر الصوان وبرودة الثلج. وقبل أن تتمكن من الرد بأكثر من إيماءة، دخل ماكس إلى

الغرفة واندفع إلى فيليسيتي والتصق بها بما يشبه العناق، ثم خرج برفقتها. وبعد لحظات، انصفق باب سيارة ثم باب آخر. وتصاعد صوت سيارة ماكس الرباعية الدفع في الطريق الجانبي، مبتعداً عن المنزل.

حسناً، هذا يعكس بوضوح تام ما هي أولويات ماكس. بدا واضحاً أنه يرغب في فيليسيتي لنفسه، في مكانٍ خاص حيث يمكنهما أن يتبادلا الغرام من دون مقاطعة. ولا شك في أنه سيعود إلى البيت لاحقاً ويوبخ فوبي لتكديرها صديقته، وانحنى كتفا فوبي وانهمرت دموعها. لم تر قط ملامح ماكس متغيرة بهذا الشكل، وهذا كله بسبب فيليسيتي، كله من أجل فيليسيتي.

١٠ ــ سرنا المشترك

للغضب قدرة على أن يحرق المشاعر الأخرى أو على الأقل أن يخفيها خلف هديره الهائج. كان هذا حال فوبي حين سمعت صوت سيارة ماكس تعود متأخرة ذلك المساء. كانت غاضبة إلى حد لم تعرفه من قبل ما جعلها لا تستطيع أن تنتظر لحظة واحدة من دون أن تصب جام غضبها عليه.

كان الطفلان مستغرقين في نوم عميق في سريريهما بعد أن تناولا الدواء وارتاحا مطمئنين إلى مستقبلهما الذي صممت فوبي على أن تسانده. هذا ما تنوي القيام بالضبط به الآن. ولن تهتم مثقال ذرة فيما لو عاد ماكس مع فيليسيتي لكي يجعلها شريكته في الحياة، وفي هذه اللحظة بالذات.

على فوبي وماكس أن يتفاهما وحدهما الآن وهذا من أجل جيك وجوش. يكفي ماكس مراوغة وخوفاً ورفضاً للالتزام مهما كثرت الأسباب التي لا تعرفها، وستحرص على أن يقوم بما هو مناسب نحو ولديه ويبقيهما معه ويعتني بهما بالشكل الصحيح، وإلا سوف... سوف تأخذهما منه بنفسها، ولن يتمكن من منعها. يا لسخافة أفكارها هذه، لكنها كانت، تساعد على استمرار غضبها. وقاد الغضب فوبي إلى الخروج بخطوات واسعة بطيئة. وعندما دخلت إلى المرآب، صفقت باب البيت خلفها... وكان هذا غباء منها إذ سادت الظلمة على الفور... لكنها أخذت تتلمس طريقها إلى الأمام متجهة إلى

مقعد السائق، مصممة على أن تفاجئ ماكس قبل أن يلتقط أنفاسه.

انفتح باب السيارة ثم انغلق ما منحها من الضوء ما يكفي لترى ماكس واقفاً يواجهها.

- لن تأخذهما بعيداً.

كان صوتها حاداً بعض الشيء، لكنها لم تستطع أن تتجنّب نبرة التهجم: «لن تأخذهما إلى أي مكان، هل تسمعني؟ لا يهمني مدى روعة فيليسيتي، هذان الطفلان سيبقيان مع أبيهما، ويحصلان على رعاية أبيهما واهتمامه».

وبقيت تسير في ما ظنته الاتجاه الصحيح وهي تتابع: «أنت مدين لهما بهذا يا ماكس... وأنت تعلم هذا... أووو...».

واصطدمت بصدر صلب، لتحيط بها ذراعان قويتان تثبتانها. بينما هي تقاومه بشكل آلي، لتتخلص من قبضته، كان هو يقول بنبرة ضاحكة: «من الأفضل أن تلتقطي أنفاسك، يبدو أنك أسأت الفهم».

سوء فهم... وأخذت تضرب في الظلام لكنه أمسك بقبضتها قبل أن تصيبه ضربة منها، فراحت تتلّوى وتقاوم بينما هو يجرها ويسير شيئاً فشيئاً نحو مفتاح الإضاءة. حاولت التخلص منه لكنها لم تنجح، وعندما أضاء ماكس المكان كشف عن مدى التقارب بين جسديهما والتصميم على ملامحه وهو ينظر إليها. وأخذت فوبي تتنفس بعنف: «لا يمكنك أن ترسل الولدين إلى مدرسة داخلية أو أسوأ من ذلك. ألا تدرك مدى قسوة ذلك إذا ما هجرتهما بتلك الطريقة بينما سبق وخسرا الكثير؟».

فقال وهو يهز كتفيها: «لا تكوني غبية، ليتك تكفّين عن هذه الثرثرة وتصغين إلي...».

- اهتمامي بولديك ليس غباء يا ماكس.

وحاولت مرة أخرى أن تضربه، وصدها مرة أخرى، ثم قال: «هذا ليس ما أعنيه».

جاء صوته أكثر عمقاً، لكنها كانت من السخط بحيث لم تلحظ ذلك، فكيف تلحظ معناه؟

- أنت تدّعين أنّ خبرتك في الحياة تكوّن ردة فعلك.

- ربما هذا صحيح

وردّت رأسها إلى الخلف: «إذا كان هذا هو الحال، فلدي سبب وجيه لهذا. ولداك لا يستحقان نوع الطفولة التي عشتها أنا. لم أشعر بأن ثمة من يحبني، ولطالما تساءلت عما إذا كان نزلاء الملجأ قد ارتكبوا ذنوباً فاستحقوا هذا العقاب، لا يمكنك أن تفعل هذا بهما. يكفي سوءاً أنك تبتعد عنهما. إذا ما فضلت فيليسيتي عليهما وتخلصت منهما كما تريد، لن يبقى لهما شيء... لا شيء».

بدت الرقة في نظراته وقال: «فوبي...».

- أين هي تلك المرأة على أيّ حال؟

طرحت هذا السؤال وحمّلته غضبها واستنكارها، فهي لا تريد أن تقف هنا وتدع ماكس يبدي شفقته عليها بسبب ماضيها، كما بدأ جسدها يتجاوب معه، وهذا ما لا تريد لماكس أن يلحظه. ونظرت إلى داخل السيارة، فوجدتها فارغة فيما قال: «فيليسيتي ليست هنا وهذا واضح».

كان جسداهما متلاصقين إلى حد لم تشأ فوبي أن تفكر فيه.

قالت: «دعني أذهب».

- بعد دقيقة، أنت لست موضع ثقة حالياً.

- هذا مضحك، إذا كان هناك من هو ليس موضع ثقة فهو أنت.

وأخذت تتلوّى لكي تتمكن من رفسه بقدمها، لكنه ثبتها مكانها بحزم وشدّ ذراعيه حولها: «كفى تململاً، وإلا لن أكون مسؤولاً عن النتيجة».

في هذه اللحظة شعرت بأنها تكرهه حقاً، وقالت تظهر مدى ما فقدته من تمالك نفسها: «أنت كمعظم الرجال، لا تفكر إلّا في...

كما هو حالك الآن. أنت... أنت... أنت...».

واحمرّت وجنتاه وسألها: «ماذا حدث عندما شرحت لك طبيعة علاقتي بفيليسيتي؟ وذلك عندما جئت إلى البيت واكتشفت أنها هنا؟».

قالت وهي تضرب الأرض بقدمها: «لم تشرح لي قط».

وجمدت مكانها لئلا تبوح بما في داخلها: «لم تخبرني قط عن مدى علاقتك بها».

- بالضبط، لم أخبرك لأنك سبق واقتنعت بظنونك حتى قبل أن تسأليني. أنت أدنتيني ولم يكن لدي حظ.

- لا يمكنك أن تنكر أنه ثمة شيء ما...

- هذا صحيح، ثمة شيء.

واشتدت ذراعاه حولها وهو ينظر في عينيها مباشرة: «أنا لست قديساً يا فوبي، عرفت نساء عديدات في حياتي، وفيليسيتي واحدة منهن، إنما لمدة قصيرة جداً. خرجت معها وهذا كل ما في الأمر، وقد انتهت العلاقة قبل أن تأتي إليّ هنا، وما زالت وستبقى كذلك دوماً. لا يمكنني حتى أن أفكر في ما رأيته فيها وجعلني أخرج معها».

فقالت فوبي بلهجة غير واثقة: «سيكون بينكما أعمال، أنا واثقة من أنها...».

هز رأسه: «أنا واثق من أنها قالت الكثير. سأحصل على الأعمال إذا بقي العرض سارياً بعد أن طردتها من بيتي وإلا فهذه خسارة. لقد كدّرت الطفلين إلى حد كبير... وكدرتك أنت أيضاً».

قال الجملة الأخيرة بصوت خافت، فأخذ قلبها يخفق بقوة وخفضت بصرها راجية ألّا يكون ماكس قد لاحظ نظراتها، وقالت: «ولكن... أمتعتها ما زالت هنا».

ولامس كتفيها ما جعل أحاسيسها تتفتح ببطء: «سوف يأخذ برنيت أمتعتها إلى «وكالة السياحة» غداً ليرسلوها لها، ذلك لا يهمني حقاً»

- إنها...

وضع إصبعه على شفتيها: «لديها جدول أعمال لم أكن جزءاً منه. احتملت وجودها لكي أسمع ما ستعرضه عليّ في العمل، فأدركت أني أخطأت حين انتظرت».

- ظننت أنك تريدها بقربك، وأنك منجذب إليها. عندما كنتما تذهبان معاً إلى المكتب، كنتما أنت وهي...

فقاطعها مؤنباً حتى لتفكيرها بذلك: «لم نكن نفعل شيئاً».

امتدت يداها إلى صدره وقد استرخى جسدها ليذوب بين ذراعيه، وكأنه يعلم مركزه وماذا يريد.

يبدو أن فوبي لم تعد تشعر بذلك الغضب الملتهب الذي رافقها طوال النهار. وفكرت في أن عليها أن تبتعد عن ماكس وتتحرر من إمساكه بها الذي استحال أكثر من مجرد تلامس لكنها لم تتحرك، لم تستطع أن تحمل نفسها على التخلي عن هذه المشاعر الرائعة.

قال والإخلاص والعتب في عينيه: «لا بد أنك تعلمين أنني لا أستطيع أن أبعد جوش وجيك عني، يا فوبي».

حدثتها نظراته بالحقيقة أكثر من كلماته، وتابع: «آسف لأن فيليسيتي استطاعت أن تجد طريقها إلى هنا، سمحت لها بالبقاء ما جعلها تحدث كل تلك الفوضى. أي شخص آخر قد يأتي أثناء غيابي فاطرديه، اتفقنا؟»

بسطت يداها على صدره فسمعت خفقان قلبه تحت أصابعها.

- ماذا لو طردت شخصاً مهماً حقاً فجعلتك تخسر ملء شاحنة من النقود؟

- حينذاك سأتعامل مع شخص آخر، فهذه مجرد قضية مال.

وشدّها إليه، ثم أغمض عينيه وتنفس ببطء وعمق متشمماً شيئاً يريده ويحتاج إليه.

- اشتقت إليك يا فوبي، أردت أن أعود إلى البيت وأمضي وقتاً

مع طفليّ وأنظر إلى وجهك عبر المائدة. فليساعدني الله، إذ لا أستطيع أن أفسر ذلك، لكنني أريدك وحسب.

وعانقها بشدة بينما أحاطت هي عنقه بذراعيها. أرادت هذا، وماذا يهم إذا ما شعرت بالندم لاحقاً؟ حالياً لديها ماكس حيث تريده، كما أنه يريدها. ورفع رأسه قليلاً، لكن ذراعيه اشتدتا حولها: «فهمت أن الولدين نائمان؟».

أومأت غير قادرة على استيعاب أي شيء آخر.

سألها وقد بدا وكأن المكان فرغ من الهواء: «هل هما مستغرقان في نوم عميق؟»

فهمست: «لقد تناولا دواءً للزكام، وأتوقع أن يكون نومهما ثقيلاً».

أومأ: «فلنخرج إذن، فبقدر ما استمتعت بالحديث معك هنا يمكنني أن أفكر في مكان أكثر راحة».

عندما مدّ يده لها أدركت أنها دعوة لأكثر من مجرد شرب القهوة في المطبخ. إنها ستتقبل هذه الهدية إذ يبدو أن ماكس يعتقد أنها تعيش دوماً للحظتها الحاضرة، وعليها هذه المرة أن تثبت له صحة رأيه. ووضعت يدها في يده.

قادها إلى داخل المنزل حتى وقفا في غرفة الجلوس التي لم يكن ينيرها سوى مصباح صغير وجذبها إليه ليأخذها بين ذراعيه.

قال: «تفوح من جسدك رائحة الورد».

هزت كتفيها: «إنه كريم أحبه للغاية».

- يا للحلوة الضعيفة فوبي.

وجذبها إليه فيما ردّت: «أنا لست ضعيفة، بل قوية».

- بل أنت رائعة الجمال ومثيرة إلى حد لا يصدق.

أنعشتها كلماته وأدفأتها واكتسحتها البهجة بشكل لم تعرفه من قبل، وقالت: «وأنت...».

وترددت واغرورقت عيناها بالدموع فضمّها إليه وقال: «كان أبوك مخطئاً، فأنت تستحقين أكثر بكثير مما أعطاك».

- وكيف عرفت ؟

ابتعدت عنه قليلاً لتتمكن من أن تتفحص نظراته وهي تتابع: «لم أتصوّر يوماً أن تخبرك كاترين، فهذا سرنا المشترك».

- كاترين لم تخبرني. أردت أن أعلم، فأجريت تحرياتي حتى عرفت ما حدث.

- منذ متى تعلم ذلك؟ وما الذي عرفته؟

- علمت أنه رفض الاعتراف بك، لم يشأ أن يعرف عنك شيئاً، ومع ذلك أقنعته بشكل ما.

- لم أقنعه بالضبط.

كان صوتها فاتراً خالياً من أي تعبير، وابتدأ الإحباط يتملكها. لم تكن فوبي تحب التفكير في الماضي، فهو يؤلمها ويسبب لها الكآبة من دون فائدة: «حاولت أمي أن تبتزه عندما حملت بي، وبعد أن ولدتني أيضاً لكنها فشلت، فألقت بي في مأوى الأيتام. عندما بلغت الحادية عشرة، قررت أنني نلت كفايتي من تلك الحياة فاقتفيت أثر أبي، ولم تكن أمي قد أخفت عني أيّ معلومات، وأخبرته أنني سأطالبه بإجراء فحص الحمض النووي ثم أبيع القصة للصحف إذا لم يخرجني من الملجأ».

فقال ماكس متألماً: «كان عليه أن يعترف بك، إنه ملزم بذلك».

- لم يكن يريدني، كما أنني لم أكن أريده أنا أيضاً. أردت مدرسة داخلية راقية ، وهذا ما طلبته منه، لم أطلب صحبته أو شفقته. لقد وافق على الدفع شرط أن أبقى بعيدة عنه، وكان هذا يناسبني تماماً».

فقال ماكس وهو يحتضنها: «كان مخطئاً. لو أنه علم مقدار خسارته لتملكه الأسف الشديد. لم أخسر سوى أربع سنوات من عمر جيك وجوش، لكنني أشعر وكأن هذه السنوات سُرقت مني إلى الأبد».

- أتعني هذا حقاً يا ماكس؟

لم تتوقع قط أن تسمع مثل هذا الاعتراف من ماكس، وسألته: «ماذا عن القرار الذي اتخذته بأن تبقى بعيداً عنهما؟ ظننتك لا تهتم بهما كثيراً».

- وأظنك اعتقدت أنني لم أهتم قط بكاترين أيضاً؟

وكان جوابه مليئاً بالمرارة.

- كلا، لم أظن ذلك أبداً.

هذا صحيح، فقد أدركت منذ البداية أن ماكس يحب أخته ويريد لها الخير دائماً.

- فلندع هذا الموضوع، ولنستمتع بهذه اللحظة.

وأدنى ماكس رأسها يريحه على صدره.

- وكأنها اللحظة الوحيدة؟ لأنني لا أناسب بيتك؟

ورغم أنها لم تتحرك، إلا أنها ابتدأت تنسحب عاطفياً.

أجفل وأجاب: «لِمَ تقولين هذا الآن يا فوبي؟».

- إنها الحقيقة وحسب.

ورسمت على شفتيها ابتسامة وهي تبتعد عنه فقال: «هذا ليس صحيحاً، فأنت تعجبينني كما أنت الآن»

لكن رنين كلماته بدا أجوف.

- أحقاً يا ماكس؟ حتى مع ملابسي غير المنسّقة وشعري الأشعث وتصميمي على أن أقول ما أفكر فيه مهما كانت النتيجة؟

كان صمته معبّراً للغاية، وشعرت بشيء يتحطم في داخلها، وتساءلت في سرّها عما إذا ستشعر مرة أخرى بأنها على ما يرام.

لكنها عادت واستمدت القوة من مكان ما وقالت بهدوء فيما هي تتجه نحو الباب: «أنا مجرد مربية هنا. تصبح على خير، يا ماكس».

١١ ــ لنكمل الطريق

- الولدان بحاجة إلى ملابس جديدة.

جاء صوت فوبي يعلن ذلك من مدخل مكتب ماكس، فضرب على زر الإرسال في بريده الالكتروني ثم التفت إليها.

كانت ترتدي قميصاً وسروالاًمن اللون نفسه،وتنتعل حذاء متيناً.

- هل أنت بخير تماماً؟ لم تكوني طبيعية في الأيام الأخيرة.

كانت منفعلة وغير مستقرة، وقد لاحظ ماكس هذه الأعراض لأنه يعاني منها أيضاً. لكنها أوضحت أنها لا تريد أن تتكلم، ولم يكن هو واثقاً من موقفها منه منذ تلك الأمسية .إنما على الأقل لم تقل إنها تريد أن ترحل،وهي لا تزال تقيم هنا، ما يعني أنّ ثمة أمل في أن يقنعها بالعودة إلى حيث يريدها. أصبحت فوبي حريقاً في دمه،فهو يفكر فيها ويرغب فيها ويحتاج إليها طوال الوقت لكنها انطوت على نفسها من كافة النواحي ما عدا واحدة. عندما يتعلق الأمر بتشجيعه على تطوير علاقته بولديه، سرعان ما تتحمس فوبي وتستغل أيّ فرصة متاحة. قالت رافعة رأسها بكبرياء: «أنا بأحسن حال، كأفضل ما يمكن أن أكون».

- لا بأس، هذا حسن.

لم يصدقها، لكنه لن يجادلها بهذا الشأن .

- أنا مسرور لسماع ذلك، هل قلت إن الولدين بحاجة إلى ملابس؟

- نعم، أفكر في أخذهما غداً إلى السوق.

- ما الذي يحتاجان إليه بالضبط؟

- معاطف للمطر، أحذية، سراويل جينز، ملابس داخلية. إنهم بحاجة إلى كل شيء، في الواقع. هل يشكّل ذلك فرقاً؟ يمكنك أن تعطيني النقود فآخذهما إلى المدينة غداً وأشتري كل ما يحتاجانه.

- هذه فكرة حسنة. سنذهب باكراً، فنشتري لهما الملابس أولاً، ثم ننزل إلى الساحل لقضاء بعض الوقت عند البحر. يمكننا أن نمضي الليلة في غرفة في المنتجع، ثم نعود إلى البيت في اليوم التالي.

وانفجرت تقول بلهجة اتهام: «ظننتك ستعود إلى العمل، يمكنني أن اصطحبهما للتسوّق، إنني أريد قضاء هذا الوقت معهما...».

بدا هذا تراجعاً ما أشعر ماكس بعدم الارتياح،وكأنها تقول (أريد قضاء بعض الوقت معهما قبل أن أرحل) فنهض عن كرسيه، وجاء ليقف بجانبها عند الباب: « التغيير سيفيدنا ألا تظنين هذا؟ إلا إذا كنت لا تشعرين بالقدرة على القيام برحلة إلى الساحل».

كانت هذه مجازفة، لكنها بادرته على الفور: «يمكنني أن أواجه أي تحدٍ يتطلبه عملي، يمكننا أن نذهب جميعاً للتسوّق ثم إلى الساحل، أنا واثقة من أن الولدين سيعشقان الشاطئ».

كتم ماكس ابتسامة سرور لنجاحه لكن ساعات الصباح التالي الطويلة جعلت تلك البهجة تتلاشى. وتمتم من بين أسنانه وهو يجر جيك من تحت القمصان الرجالية في أحد أكبر متاجر سيدني: «سنتسوّق عبر الانترنت،ولا يهمني إن لم تأتِ الملابس على مقاس الجسم».

أنبأه شخير مكتوم من خلفه أن فوبي سمعته. كان ذراعاها محمّلين بملابس الأطفال، فيما قبضت على يد جوش بقوة تمنعه من الهرب منها. وقال مزمجراً: «هل نحن على وشك الانتهاء؟».

كانت ابتسامتها ساخرة وأجابت: «نعم، علينا فقط أن نصعد إلى

الطابق العلوي حيث قسم الأحذية لنختار أحذية للولدين».

- الحمد لله، فلنتحرك إذن، كلما أسرعنا في الخروج من هنا، كلما كان أفضل.

سار ممسكاً بحزام طفله من الخلف بينما هذا يحاول أن يفلت منه لكن عبثاً. صرخ الولدان باكيين عندما شاهدا صفوف الأحذية الجديدة اللامعة، ولم يسكتا إلا بعد أن طلبت فوبي من البائع أن يقيس لهما الأحذية التي اختاروها ليرسلها لهم لاحقاً. بعدئذ، اندفعا خارجين من المتجر، والولدان في أثرهما.

كان الحال على الشاطئ أفضل، إذ وجد ماكس زاوية منعزلة فتركا الولدين يلعبان ويركضان على الشاطئ قرابة النصف ساعة.

تنفس بعمق وقد تملكه الأمل في أن تتحسن الأمور. بعدئذ، أخذا الولدين إلى الميناء حيث لعبا في حديقة عامة وأكلوا جميعاً البطاطا المقلية مع السمك ثم دخلوا إلى دار للسينما حيث شاهدوا فيلماً عن حشرة في رحلة لاكتشاف الذات وشفائها. راح الطفلان يقهقهان ضاحكين أثناء الفيلم فيما بكت فوبي عندما تخلصت الحشرة من آثار حياتها الحزينة القلقة.

بكت وبكت وبكت ما جعل ماكس يناولها منديله الذي سبق واستعمله جيك في تجفيف وجهه.

- أنت تشعرين بدوار، أليس كذلك؟

وأمسك ماكس بذراعها وهما يسيران نحو السيارة. كانت عيناها منتفختين وحمراوين قليلاً، وتنهد وأومأ إلى الولدين اللذين تقدّما منهما ببطء واهتمامهما مركز على كيس الحلوى الذي اشترياه: «أنت لم تريهما يبكيان أليس كذلك؟».

- كان فيلماً مؤثراً للغاية يا ماكس.

وسحبت ذراعها من يده ثم أسرعت نحو السيارة: «وماذا أفعل إذا كان إحساسك قد تجمّد منذ زمن بعيد؟».

لم يعرف ماكس ما إذا كان عليه أن يضحك أو يشعر بالإهانة، لكنه اختار أن يسرع إلى الشقة التي استأجرها لهذه العطلة. وعندما وصلوا اهتم بنقل أغراضهم بينما وضعت فوبي الطفلين في الحمام.

عندما فرغ ماكس من عمله، وجال قليلاً في أنحاء الشقة، وضعت فوبي الطفلين في سريريهما وجلست بجانبهما تقرأ لهما قصة «قميص هيرام الأحمر» مرة أخرى. همس جيك: «أنا أحب هيرام أكثر».

فقال جوش وهو يستسلم إلى النوم: «أنا أيضاً».

نظر ماكس إلى فوبي وهي تلامس ولديه، وتزيح الشعر عن جبينهما، وتساءل عما إذا كانت تعلم كم تبدو حنونة في عملها هذا: «أنت تصلحين لأن تكوني أماً رائعة».

خرجت هذه الكلمات من فمه من دون وعي منه، فاصفرّ وجهها وكأنه طعن قلبها بسكين، ما جعله يتقدّم منها: «ماذا حدث؟».

نهضت وقالت تغير الموضوع: «لا شيء. أنا جائعة، أرجو أن تكون قد طلبت شيئاً للعشاء».

وكان قد فعل ذلك فاقترح عليها أن يتناولاه على الشرفة المطلّة على الخليج. راح النسيم يعبث بشعر فوبي وهما يأكلان سمك السلمون المدخن والسلطة.

قالت له: «كنت محقاً في تنظيم هذا النشاط للطفلين يا ماكس. آسفة لأنني حاولت أن أجعلك تدع هذه الفكرة».

ابتسم قليلاً، لكن ما أراده حقاً هو فوبي، والتهبت عيناه عبر المسافة التي تفصل بينهما: «هل تظنين حقاً أنها فكرة حسنة؟ لا يبدو أنهما استمتعا كثيراً بالتسوق».

- إنهما ذكران... بالغا الحيوية وفي الرابعة من العمر.

ووضعت في فمها قطعة الحلوى قبل أن تضيف: «ومن الطبيعي ألا يستمتعا بشراء الملابس».

- إلا إذا تركناهما يحطمان كل واجهات الملابس في المتجر.

واستطاع أن يبتسم الآن لهذا. وقالت: «لقد عشقا الشاطئ، أنت تبذل جهدك لتمنحهما أوقاتاً سعيدة، وهذا يسير بنجاح».

- أخبريني عن طفولتك، قبل تعرّفك إلى كاترين.

فقالت وهي تخفض بصرها وتضع طبق طعامها جانباً: «تحدثنا عن ذلك الليلة الماضية».

- بقيت ثغرات كثيرة، ومن الأفضل أن تملأيها.

وقف وجمع الأطباق وحملها إلى الداخل ثم عاد يجلس معها: «لطالما أردت أن أعلم، فقد كنت أفضل صديقات كاترين».

- لكن ليس صديقاتك أنت إذ لم نكن ننسجم معاً.

مال إلى الأمام مشابكاً ذراعيه على المائدة: «لكن الحديث عن الماضي ونحن الآن في الحاضر».

فقالت وهي تنظر إلى الأفق متأملة: «نعم، سأخبرك عن الماضي، لا أرى فيه ما يؤذيني لأنه مضى وانتهى».

لم يوافقها ماكس الرأي فالماضي يشكّل الإنسان.

في الفناء تحتهما جلست فرقة موسيقية مؤلفة من ثلاثة موسيقيين تعدّل آلاتها، بينما راح آخرون يسبحون في البحيرة المتألقة.

- كانت أمي تمارس الرقص من أجل المال في أماكن رخيصة. وكنت أنا صغيرة في السن لكنني أذكر بعض تلك الأماكن، والرجال الذين فيها. كانت ترقص بينما أختبئ أنا تحت طاولة في الخلف، فإذا أعجبها رجل وأعجبته، تصحبه معنا إلى بيتنا، وبصراحة لم أكن أحب ذلك.

- آه، يا فوبي.

أن يسمعها تروي هذا فيتصور تلك الفتاة الصغيرة الخائفة مختبئة على الأرض القذرة، قلقة خائفة من أن تنساها أمها وتتركها خلفها، هذه الصورة جعلته يشعر بالاختناق.

- كان أبي أحد أولئك الرجال الذين اصطحبتهم إلى بيتنا.

واعتادت أن تقول إنه كان مفتوناً بها، فأرادت أن تغريه وتوقعه في الفخ، لأنه رجل غني قادر على أن يجعلها تعيش حياة مرفهة.

- هل أنت واثقة؟ لعلهما أحبا بعضهما بعضاً؟

ضحكت من دون مرارة بل بحزن واستسلام وقالت: «أرادت أن تحصل عليه فحملت آملة أن يتزوجها، لكنه بدلاً من ذلك هجرها. وعندما حاولت أن ترغمه أوضح لها أنه لن يتحمل المسؤولية قط، وأنها لن تستطيع أن تحصل عليه».

- فوضعتك في الملجأ؟

- نعم، إنما بعد فترة. كان اسمي عند الولادة «تنسل تاونسند». هل تعلم هذا؟ كما أنني ابنة راقصة إغراء كما يبدو.

مدّ يده وأمسك بيدها رغماً عنها: «أنت فوبي، أنت فوبي فقط».

أومأت: «هذا صحيح، كنت مقتنعة بأني أستطيع أن أكون من أريد، وألّا أنتمي إلى إنسان معيّن، سواء أمي أو أي شخص آخر. كانت المشرفات على الملجأ سيدات طيّبات، وقد استبدلن اسم «تينسل» باسم «فوبي» منذ وصولي. لقد أدركن مدى عدم رغبتي في أن أكون ابنة أمي. وبقيت أدعى «فوبي تاونسند» حتى أخبرتهن أني أفكر في شهرة جديدة أيضاً. أردت أن أكون مختلفة تماماً عن تلك الفتاة الأخرى... تلك الفتاة المنبوذة».

- كيف غيّرت اسمك؟.

هزت كتفيها وردّت: «بقي ذلك بشكل غير رسمي حتى اتصلت بأبي، فأنجز المعاملات من أجلي. لا أدري كيف لكن هذا كان جزءاً من الصفقة. أن أتخلى عن شهرتي عند الولادة، فيساعدني على الابتعاد عنه وعن كل ما يذكرني به».

- هل كان لديك أصدقاء في الملجأ؟

أومأت بالإيجاب.

- كانت السيدات المشرفات صديقاتي، وهن الوحيدات اللاتي

اتخذن هذه الصفة، والوحيدات اللاتي اهتممت بهن عندما فارقتهن.

- أنت أشجع امرأة عرفتها.

ووقف وجذبها لتقف إلى جانبه: «أنت شجاعة وذكية وطيبة للغاية».

كانت الموسيقى قد راحت تصدح، ولاحظ أن العازفين ماهرون للغاية، لكن فكرة أكثر أهمية شغلت ذهنه حالياً... وهي احتضان فوبي: «أترقصين معي؟».

نظرت إليه باضطراب: «عفواً؟».

أمسك بيديها يرفعهما ويضعهما حول عنقه: «ارقصي معي، في هذه اللحظة، الرقصة التي تناسب فوبي جيلبرت المرأة العصامية... المرأة غير العادية».

لم يشأ أن يدعها تذهب إلا بعد أن تنتهي الرقصة مهما كان نوعها، وسواء أكانت ممتعة أم لا.

انسجمت خطواتها مع خطواته بشكل ممتاز وكأنها تقرأ أفكاره، فقال: «أنت ماهرة في هذا».

- إنها في جيناتي الوراثية.

ابتسم لكن سرعان ما تلاشى المزاح لتحل مكانه مشاعر أخرى... مشاعر عميقة تعكس صحة وجودها هنا بين ذراعيه فيما نسيم البحر يلاطفهما، والموسيقى تداعب آذانهما برقة بالغة. أقلقته هذه الانفعالات لكن ليس إلى الحد الذي يجعله يطلق سراحها، ليس الآن. وقال مصمماً: «بل نحن نستمتع بوقتنا معاً أو يستمتع كل واحد منا بوجود الآخر».

فتنهدت فوبي ثم استرخت وعادت تلتصق به.

عندما اشتدت ذراعاه حولها، رفعت وجهها إليه وفي عينيها سؤال فأجابها عليه بشدّها إليه أكثر.

- أنت امرأة مثيرة يا فوبي، وهذا أمر لا علاقة له بالجينات أو

بأي شيء آخر.

- ماكس أنا لست واثقة مما...

- دعيني إذن أكون واثقاً عنا نحن الاثنين.

واسكت اعتراضها بلمسة من إصبعه: «لا تفكّري، كوني هنا فقط الآن، معي».

- ولكن...

- أغمضي عينيك واشعري بنا معاً.

أثارت كلماته صوراً مثيرة في ذهن فوبي، فتأوهت ولم تستطع المقاومة، أخذ نبضها يتسارع، فالحرارة التي تسربت من يديه بعثت الشوق في كل أنحاء جسدها.

تأوّه ماكس بصوت مسموع ثم همس: «لا بدّ أنك تعلمين أنك تقتلينني».

تنفست بعمق وقالت: «سبق وعاهدت نفسي على ألّا أتهوّر».

- نحن لا نفعل هذا حالياً.

- صدقني يا ماكس، ما أسرع ما سنصل إلى حافة الهاوية.

- وهل الفكرة كريهة إلى هذا الحد؟

حبست أنفاسها محاولة تمالك نفسها. وعندما بقيت صامتة أضاف: «إنني أريدك إلى أقصى حد، لم أعد أفهم نفسي، لم أعد واثقاً من أنني أفهم شيئاً».

- أنت ترغب فيّ؟

بدا عليه الارتباك وكأنه يحاول أن يفسّر شيئاً ما لكنه لم يستطع أن يجد ما يبحث عنه: «لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين نكون معاً، لكنه لا يشبه أي شعور عرفته من قبل. أنت وثقت بي حين أخبرتني عن ماضيك الليلة».

- وما علاقة ذلك بكل هذه الأمور؟

وأخذت تفكر في أن ماكس لم يرغب فيها... ليس كامرأة مناسبة

له على أيّ حال، بل هو يريد أن يحميها. ولعله شعر بالأسف من أجلها. قالت: «لن أتكل عليك يا ماكس أبداً».

إذا كان هذا ما يريده منها فهو يرجو ما لن تمنحه إياه ابداً، ولم تعد واثقة مما إذا كان ماكس هو من أطلق يدها من قبضته، أم أنها هي التي جذبتها. لكنهما انفصلا، وأحزنها ذلك رغم أنها قد قاومت لكي يحصل هذا.

سار ماكس إلى حافة الشرفة وأمسك بها بيديه الاثنين، محدقاً إلى البحر البعيد: «أظن أن شعوري أكثر من مجرد شعور حسّي وجسدي يا فوبي، إنه أعمق من ذلك. الأمور تتغير بيننا، فلا تنكري ذلك».

- أنا لا أنكر ذلك أبداً.

كيف تنكر وهو الذي يعذبها منذ عادت إلى بيته؟ استمر حبه يعذبها، ويشتت ذهنها، ويتركها تتساءل عما يخبئ لها المستقبل، وعما سيحل بها إذا ابتعدت عنه وهو الذي مثل جزءاً من حياتها طوال تلك السنوات، هذا الرجل الذي خاصمها في البداية ليجذبها في النهاية. وتملكها شعور باليأس، وبدا من الضروري أن تقنعه بأنها ليست متعلقة به فقالت: «ظننتك تتفهم الوضع... إنه انجذاب جسدي بحت فنحن من عالمين مختلفين».

- أنت تريدين أن تهربي، ترفضين قبول فكرة أن ثمة شعور هام للغاية بيننا، ولهذا تريدين أن تهربي.

كانت لهجة ماكس تنبئ بالغضب وجرح الكرامة وهو يتابع: «هذا ليس جواباً يا فوبي، ليس هذه المرة».

تفجّر غضبها وسألته: «ما هو إذن؟ ما هو الجواب؟».

لا يبدو وكأنه يريد أن يمضي بقية حياته معها، لا يبدو أن بإمكانه أن يتقبّلها... أن يحبها... أن يحبها كإنسان يستحق هذا. وانقبضت يدا ماكس وهو يجيب: «لا أدري ما هو الجواب، يا فوبي، لقد تفاعلنا معاً ولأكثر من مرة، من المؤكد أن هذا يدل على شيء ما».

- كان يمكن لأي رجل أن يثير فيّ هذه المشاعر.

كان هذا قولاً أحمق، فحتى التفكير برجل آخر جعلها باردة المشاعر، لكن كبرياؤها دفعتها للكلام بهذا الشكل.

تخلل شعره بيديه ثم التفت إليها: «تباً يا فوبي! ما يحصل بيننا لا يمكن أن يحصل مع أيّ كان».

- ربما، لكننا سنتجاوز ذلك ونكمل الطريق.

ماذا يريدها أن تقول؟ وقالت: «سأدخل يا ماكس».

عليها أن تبتعد عنه قبل أن يدرك كم توشك على الانفجار.

واتضحت الخطوة التالية في برنامج فوبي...

عليها أن تتأكد من أن ماكس وولديه في أحسن حال قبل أن ترحل.

١٢ ــ طفلان في خطر

- لا أدري بالضبط ما عليّ أن أفعله وما عليّ أن أفكر فيه.

جاءت هذه الكلمات بنبرة باكية كان يمكن أن تحرجها لو لم يعمد برينت على الفور لإحاطة كتفيّ فوبي بذراعه.

شدّها إليه مرة أخرى ثم تركها سائلاً: «ماذا ستفعلين؟ هل ستبقين هنا؟».

- عليّ أن أرحل، ولكن عليّ أولاً أن أطمئن إلى أن الطفلين بخير من دوني...

لم يتبق لها ما يكفي من القوة لتشرح شعورها نحو طفلي ماكس، وتابعت تقول: «ثمة مواضيع... أمور عليّ أن أتأكد من أنها استقرت قبل أن أرحل».

من الأفضل ألّا تقول المزيد، كما أنه سبق لها أن فتحت قلبها له بما يكفي. جلسا على السلم أمام شقة برينت وكان ماكس قد ذهب إلى المدينة، رغم تذمره من ذلك. بدا وكأنه فقد اهتمامه بعمله حالياً، لكنه كان قد التزم بهذه الصفقة شخصياً منذ عدة أشهر.

في هذه الأثناء، وفيما راح الولدان يلعبان على كومة الرمال، وجدت فوبي نفسها تقصّ على برينت بحذر قصة علاقتها مع ماكس. اعترفت له بحبها لماكس لكنها وجدت أن كشفها عن هذا الأمر لم يجعلها تشعر بارتياح تام، فشهقت ثم ترددت وهي تنظر إليه بابتسامة مرتجفة: «أشكر لك إصغاءك إليّ، وأنا واثقة من أنني سأتمالك

نفسي... أن أجد شخصاً أفضي إليه بما في نفسي ساعدني كثيراً».

ربّت برينت على ظهرها بارتباك ثم قال: «لا بأس، فلديّ ثلاث شقيقات أصغر مني سيعانين في وقت ما مثل هذه الأمور، وبما أن والدي توفي، وأنا الابن الأكبر، فأظنني سأستفيد من هذا التدريب».

إنه فتى لطيف يراعي مشاعر الآخرين ومن المؤسف أنه ليس أكبر سناً فربما كانت لتقع في غرامه بدلاً من ماكس...

وكأنها قد تقع في حب رجل غير ماكس! وقالت وهي تقف: «شكراً، من الأفضل أن أذهب الآن. وأراك لاحقاً».

ونفضت الغبار عن سروالها ثم راحت تهبط السلم. تنفست بعمق ثم اتجهت إلى كومة الرمال، وقد عقدت النيّة على ألّا تظهر للطفلين أنها كانت تبكي: «هيا يا أولاد، حان وقت الدخول إلى البيت لتتناول وجبة خفيفة».

لم تسمع جواباً، فرفعت نظرها لتجد كومة الرمال مهجورة. هزت كتفيها ودخلت إلى المنزل معتقدة أنهما دخلا إليه من دون شك، لكن المنزل بدا هادئاً أيضاً.

تملكها القلق إذ تركت الولدين على كومة الرمال حين ابتدأت تتحدث إلى برينت، وهي لا تظن أنها مكثت معه أكثر من دقيقتين. ونادت: «جيك، جوش، أين أنتما؟ حان وقت تناول الطعام».

فتشت جميع أنحاء البيت والأراضي من حوله. وعندما انتهت بدأ الذعر يتملكها، وانضم إليها برينت يساعدها.

وتشبثت فوبي بذراعه: «كم بقينا نتحدث أنا وأنت؟»

- ربما خمس دقائق، أنت لا تظنين أنهما ضاعا أليس كذلك؟

- لقد ضاعا طبعاً.

وأخذت نفساً عميقاً لتتمالك نفسها: «آسفة، أنا قلقة قليلاً، هل تتذكر آخر مرة رأيتهما فيها؟».

- على كومة الرمال، عندما ابتدأنا أنا وأنت بالحديث، بعدئذٍ،

استغرقت في الحديث فلم أنتبه إلى ما كانا يفعلانه.

لم يكن برينت مضطراً لمراقبة الولدين لأن هذه وظيفة فوبي. ولدا ماكس في عهدتها، وها هي ذي تفقدهما. لعلهما ذهبا إلى الطريق فوجدهما شخص مريض نفسياً... أو أسوأ من ذلك.

غمرها ذعر بالغ للحظة، فجمدت مكانها لا تستطيع التفكير. دام هذا لحظة واحدة قبل أن تعود إلى الواقع: «لا بد أنهما في مكان قريب، لكن إذا لم أجدهما بسرعة، فعليّ أن أتصل بماكس لأخبره بما حدث».

وفي تلك اللحظة، ظهرت سيارة ماكس في الطريق الخاص ثم توقّفت أمامهما. عندما نزل منها، نظر إلى وجهها وسأل: «ماذا حدث؟».

- الولدان مفقودان، إنهما ليسا في المنزل أو في أي مكان قريب.

شحب وجه ماكس: «منذ متى رأيتهما؟».

- منذ حوالى عشر دقائق.

كان وجهه قد جمد، وهز رأسه: «كان عليّ أن أبقى لمراقبتهما. ما كان عليّ قط أن أتركهما معك».

آلمتها كلماته لكن من حقه أن يدينها: «أنا آسفة يا ماكس، أعرف أن الذنب ذنبي».

التفت ماكس إلى برينت وأرشده إلى الجهة التي ينبغي أن يفتشها، قائلاً: «إذا لم نجدهما خلال ربع ساعة، فسأستدعي الشرطة».

وأسرع باتجاه أشجار التفاح وهو ينادي طفليه، مركزاً اهتمامه على ما يفعل، ولاحظت فوبي ذلك. لعله لا يريدها في أي مكان قريب منه، لكنها تريد أن تعثر على الطفلين باللهفة نفسها.

رافقته وبعد دقيقتين من البحث والنداء، لاحظت فوبي لعبة من البلاستيك ملقاة على الأرض قرب السياج البعيد، مدفونة تقريباً بين

الأعشاب الطويلة، فأسرعت نحوها، ثم نادت ماكس: «هذه اللعبة من كومة الرمال، وهو آخر مكان رأيتهما فيه».

أخذ ماكس ينادي بإلحاح أكبر، لكنه لم يسمع جواباً. ومع ذلك كانت الدمية تشير إلى أن الطفلين سلكا هذا الطريق بكل تأكيد. تسلقا السياج ثم أسرعا إلى ضفاف الخليج الصغير حيث كان جيك وجوش جالسين بجمود كتمثالين ووجهيهما كالثلج شحوباً. كادت فوبي تسقط على ركبتيها لشدة ارتياحها، لكن الارتياح لم يدم طويلاً، فثمة شيء غير طبيعي: «انتظر يا ماكس...».

لكنه اندفع إلى الأمام وهو يناديهما باسميهما.

- كلا يا بابا.

صرخة الرعب من جيك جعلت ماكس يجمد مكانه.

قالت بصوت مرتجف وهي تشير من خلف جيك إلى حيث كان جوش يتبادل التحديق مع الأفعى: «ماكس، ثمة أفعى».

كان الدمع يسيل على وجه جوش بينما جسمه الصغير يرتجف، لم تعرف فوبي إلى متى يستطيع الطفل الاحتمال، كما أن الأفعى بدت متململة هي أيضاً. إذ راح لسانها يخرج ويدخل بحركة خاطفة وبشكل حاقد.

- لا بأس، أنتما شجاعان للغاية، وسوف أتصرف أنا.

كانت لهجة ماكس هادئة ومطمئنة للغاية، رغم أنه بدا وكأنه كبر عشر سنوات. ومن دون أن يحوّل نظراته عن المشهد، رفع صخرة كبيرة ثم تقدم إلى الأمام بثبات وهو يطلب من الولدين عدم الحركة فيما وقفت فوبي تنظر.

وانتهى الأمر في لحظات. كان رأس الأفعى قد انسحق تحت الصخرة، بينما اختطفت ذراعا ماكس جيك وجوش وهما يجهشان باكيين. وضعهما ماكس على الأرض وأخذ يلامس رأسيهما، وهو يسألهما: «هل لدغت الأفعى أياً منكما؟».

elromancia.com

ثم أخذ ينزع ملابسهما ويتفحص جسديهما.

- لا يا بابا.

وعاد جوش يرفع سرواله ساخطاً: «بقينا ساكنين كما قالت لنا فوبي».

وانفجر جيك باكياً مرة أخرى: «أنتما تأخرتما كثيراً».

أخذهما أبوهما بين ذراعيه مجدداً بينما الطفل يتابع: «بقينا هنا إلى الأبد».

كبحت فوبي شهقاتها وركضت إلى المنزل.

لم يعد الطفلان بحاجة إليها الآن، فهما حيث ينبغي لهما أن يكونا بالضبط، مع أبيهما... القادر على تحمّل مسؤوليتهما. ومهما كانت مشاكل ماكس فهو لن يبتعد عن ولديه بعد الآن. أصبحت فوبي حرة ويمكنها الرحيل، إذ يبدو أنها غير جديرة بتحمّل مسؤولية كهذه.

وفي البيت جهزت الطعام والحمام للطفلين. وبينما كان ماكس يرعاهما، ذهبت إلى غرفتها وأخذت تحزم أمتعتها وبقيت هناك حتى وضع ماكس الطفلين في سريريهما.

عندئذٍ تنفّست متشجعة، وحملت أغراضها، ثم خرجت تبحث عن ماكس، فوجدته جالساً في المطبخ نصف المظلم مع بقايا عشاء الطفلين مبعثرة من حوله، كان لا يزال مضطرباً لكن أقل من السابق.

وتمنت فوبي لو تستطيع أن تقول إن حالتها أفضل. وضعت أمتعتها في المدخل، ثم ذهبت لتواجهه.

- أنا أتحمل مسؤولية ما حدث. كان يمكن لولديك أن يموتا اليوم، إن لم يكن بلدغة أفعى فغرقاً، والذنب ذنبي في الحالين: أنت محق في ألّا تثق بي منذ البداية.

فقال وهو ينهض: «فوبي».

لوّحت بيدها، ثم ضغطتها على فمها أثناء محاولتها استعادة توازنها: «أنا أستحق كل انتقاد أو تعنيف لأنني وبتصرفي الأناني،

عرّضت ولديك للخطر. أنت تحبهما للغاية يا ماكس، ولهذا ستحرسهما وتحميهما، مهما حصل، وتمنحهما كل ما يحتاجانه. كل ما كان يمنعك من هذا اختفى الآن».

- هذا صحيح، وسأفعل هذا كله، لكنني لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع حالياً.

وتقدم منها ووقف أمامها مضيفاً: «كانت محنة مخيفة لهما، ولنا جميعاً. كما أني تحدثت معك بخشونة عندما وصلت».

فانطلقت من فمها ضحكة متهدجة: «لديك كل الحق في ذلك».

- أعترف بأنني أجد صعوبة في الثقة بالناس.

وتخلل شعره بأصابعه بإحباط وضعف: «لكنني وثقت بك، وما زلت بالرغم من تصرفي قبل حين. كان ذلك مجرد توتر، هل تفهمين؟ لو كنت أنا موجوداً ربما لم يحدث هذا».

- ما كان لك أن تثق بي. كنت لطيفاً للغاية معي يا ماكس وأنا أقدّر لك هذا، لكن عليك ألّا تتظاهر، فأنا أعرف ما فعلت وأعلم أن الجواب الوحيد على هذا هو أن أرحل وحالاً.

- ما هذا الهراء؟

بدا غاضباً تقريباً، وكأنه يكاد يفقد قدرته على الاحتمال.

- لا يمكنك أن تعيش معي هنا يا ماكس، نحن الاثنان نعرف هذا.

وابتسمت بمرارة: «لا يمكنني احتمال ذلك أنا أيضاً. لا أدري كيف عرضت هذين الصغيرين البريئين للخطر. لهذا، جمعت أمتعتي، وأردت فقط أن أخبرك بمقدار أسفي قبل أن أرحل. سأدع برينت يوصلني. أبلغ... أبلغ جيك وجوش حبي».

أرادت أن تقول المزيد لكنها خشيت أن تفقد سيطرتها على نفسها كلياً، وهي تريد أن ترحل مع ذرة من الكرامة على الأقل.

- لن أفعل شيئاً كهذا.

وقبل أن تخرج من الباب، أمسك ماكس بذراعها فجمدت مكانها، وأدارها نحوه لتواجهه قائلاً: «عليك أن تصغي إليّ يا فوبي».

- لكنني...

ألا يراها بحاجة إلى الهرب بعيداً؟

جرّها عائداً إلى المطبخ وأجلسها على أحد الكراسي، ثم وقف مشرفاً عليها وكأنه يخاف أن تهرب إذا لم يراقبها جيداً.

- أرجوك يا ماكس.

كانت تكره التوسل، لكنها ظروف تدعو إلى اليأس.

- دعني أخرج قبل أن تصبح الأمور أسوأ.

- لن تصبح أسوأ.

وأمسك بذراعيها وهزها برفق: «لأنك ستجلسين وتصغين إلى ما سأقوله».

أومأت إيجاباً إذ لم تجد خياراً آخر أمامها، ولهذا ستحاول أن تتصرف على نحوٍ يصون كرامتها. وتساءلت إن كان لديها ما يكفي من التوازن لذلك. قال: «ما حدث لجيك وجوش اليوم كان يمكن أن يحدث لأي شخص».

- كلا، هذا ليس صحيحاً.

- اخرسي...

أمرها بذلك بحزم فكان لهذا تأثيره المطلوب إذ أطبقت فمها بينما أومأ هو: «هذا أفضل، كان بإمكان ذلك أن يحدث في أي وقت، ولأي شخص».

وترك ذراعيها لكنه لم يبتعد عنها: «لعل كاترين لم تذكر هذا، لكنني فقدتها مرتين وهي طفلة بعد أن تركها والدانا تحت رعايتي».

- لم أكن أعلم هذا.

وللحظة شعرت فوبي بشيء من العزاء، لكنها عادت فهزت رأسها: «لا بد أنك كنت صبياً حينذاك».

- حسناً، كنت مراهقاً، إنما كبير بما يكفي كي يثقا بي.

واخترقت نظراته أعماقها تأمرها بمتابعة الانتباه: «المرة الأولى التي حدث فيها ذلك، تملكني الخوف إلى حد أقسمت معه على ألا أدع ذلك يتكرر مرة أخرى، لكنه عاد فتكرر».

تملكها الفضول رغماً عنها فسألته: «كيف؟».

- لقد أدرت ظهري فقط. وبصراحة، لم أعد أتذكر ماذا كنت أفعل عندما هربت للمرة الثانية. كل ما أتذكره هو الألم البالغ الذي شعرت به عندما علمت أنها هربت مرة أخرى.

- وماذا عن والديك؟

ارتسمت ابتسامة على فمه: «كانا واعيين تماماً لما قد يحدث للأولاد الصغار، كانا منشغلين بتربيتي أنا».

- لا أرى ما علاقة هذا بي، بفقداني لولديك.

- الوضع هو نفسه.

ولمس وجهها بخفة فائقة: «اختفى الولدان عن ناظريك. نعم كان يمكن أن يصيبهما ضرر بالغ، كما كان يمكن أن يحدث بالضبط لكاترين في المرتين اللتين فقدتها فيهما».

- لا أتصور أنك اضطررت لإنقاذ كاترين من بين فكي الأفعى.

لم تستطع فوبي أن تخفي نبرة العنف في صوتها، فهذا تقصير منها وتقصير لا يغتفر. ومهما قال ماكس، تبقى هي المسؤولة عن ذلك.

- لم يكن ثمة أفعى في حالة كاترين، لكنك فعلت كل ما يلزم اليوم يا فوبي. لاحظت بسرعة أنهما كانا مفقودين وبدأت البحث عنهما على الفور. كما أن إرشاداتك هي التي أنقذتهما وحالت دون أن يصبحا في وضع أسوأ بكثير من الوضع الذي كانا فيه.

- آه، كيف يمكنك أن تقول ذلك؟

قال برقة: «ما أقوله صحيح. هذا النوع من الأفاعي... لا تخبريني أن شخصاً غيرك هو الذي علمهما هذه الإرشادات. أنا لم

أفكر في ذلك بكل تأكيد، رغم أنه كان عليّ ذلك».

- كان بإمكانهما أن ينسيا تلك الإرشادات عند مواجهة الخطر يا ماكس، أو أن يتصرفا بشكل صائب ومع ذلك تلدغهما الأفعى.

كانت أعصابها منهكة، وتزداد توتراً بين لحظة وأخرى: «أرجوك لا أستطيع أن أقتنع بهذا».

صمت لحظة ثم أومأ برأسه: «لا بأس سندع هذا الأمر حالياً. نحن متعبان، بعد هذا اليوم الشاق».

مدّ ماكس يده يريد أن يلمسها، وتلك اللمسة كانت شافية نوعاً ما، رغم أن فوبي لم تبدُ مستعدة بعد للعفو عن نفسها.

وعلى كره منه، خفض يده مقاوماً لهفة تملكته بأن يأخذها بين ذراعيه، إذ حدثه شيء ما بأن هذا ليس مناسباً حالياً وقال: «اذهبي إلى غرفتك، ويمكننا أن نتحدث عن هذا الأمر صباحاً».

ترددت طويلاً حتى ظنها لن تجيب، لكنها أومأت أخيراً: «سيكون جبناً مني ألّا أودّع الطفلين، ولهذا أظن أن صباح الغد سيكون أفضل للرحيل».

جاء الآن دور ماكس ليومئ بصمت، فليس في نيته الموافقة على أن تودّع ولديه.

لقد أدرك بعض الأمور عندما كان بجانب الخليج هذا اليوم، أدرك أنه احتاج إلى فوبي، احتاج إليها لتساعده عندما حاول أن ينأى بنفسه عن ولديه، احتاج إلى تشجيعها عندما تملكه القلق، من أن يرفضه ولداه.

كما أنه بحاجة إلى فوبي لنفسه، إنه يريدها وحسب. إنه لا يستطيع أن يفهم شعوره نحوها، إنه يريدها فقط. ربما فشلت أول محاولة له لإقناعها بالزواج، لكن هذا لا يعني أنه مستعد لليأس. غداً، أول أمر عليه أن يقوم به، هو أن يعرض عليها مشروعه هذا.

- تصبحين على خير يا فوبي، سأراك غداً.

١٣ ــ هل نجت؟

كان المطبخ يعبق بروائح القهوة والكعك المحروق. كان الصباح دافئاً، وأشعة الشمس تتسلل إلى المطبخ من خلال نوافذه. وقف ماكس عند الموقد تغمره تلك الأشعة، وقد ارتدى سروالاً قصيراً فقط فيما لوح لها بملعقة الطهي من حيث يقف: «ها قد استيقظت. إنني أحضر كعكاً محلّى للإفطار، وسنحتاج إلى من يساعدنا في أكلها».

كان يمزح، لكن التعبير الذي بدا في عينيه كان جاداً مصمماً، وعندما دخلت جالت عيناه عليها ثم عادتا إلى وجهها.

قال جوش وهو ينقر على المائدة بملعقة الحساء: «هيا يا فوبي، أنت تضيعين الوقت».

وقال جيك ضاحكاً: «عليك أن تأكلي الآن، بابا أحرق بعض الكعك ولكن ليس كله».

وأمال صحنه يريها: «انظري».

- نعم أنا أرى.

وعادت نظراتها إلى ماكس، رغماً عنها، فابتسم لها ابتسامته الملتوية تلك. كانت قد أخبرت برينت أمس أنها تحب ماكس، لكنها صُدمت اليوم وهي تكتشف مبلغ يأسها من حبها هذا.

نظرت إليه بسرعة من تحت أهدابها، راجية ألّا يرى شعورها في عينيها.

- هل أضع لك الكعك، يا فوبي؟

أتراها لمحت شيئاً غير عادي في نظراته؟ أتراه يعلم؟

وتلوّت في مقعدها لكنها أبقت نظراتها منخفضة: «لا، شكراً. سأتناول القهوة بعد لحظات».

عاد ماكس إلى الموقد، وارتاحت هي لحركته هذه ومدّت يدها إلى إبريق القهوة على المائدة. كانت يداها ترتجفان ما اضطرها لأن تهدئهما لكي تتمكن من أن تسكب لنفسها فنجان قهوة من دون أن تريقه. وعنفت نفسها بأن تتمالك نفسها فلا تبدو غبية حمقاء. لكن، ألم تثبت أنها كذلك بحبها لماكس؟

عند هذه الفكرة، التفتت إلى الولدين مكررة في ذهنها ما عليها أن تقوله لهما، راجية أن تحتفظ بصمودها فلا تنفجر باكية: «جيك، جوش...».

قال ماكس بهدوء مقاطعاً كلامها: «كنت أحدثهما عن مدى حسن حظنا لأنك علّمتهما كيف يتصرفان إذا شاهدا أفعى».

وحمل إلى المائدة طبقين من الكعك المحلّى الساخن فوضع طبقه ثم سار إليها ليضع الثاني أمامها: «كما أننا تحدثنا عن عدم الذهاب إلى الخليج، ووضع سياج جديد لا يمكن اختراقه».

- هذا حسن.

أغمضت فوبي عينيها لئلا يظهر العذاب الذي تملكها بسبب قرب ماكس منها: «في الحقيقة يا ماكس، ليس من الضروري الحديث...».

- كلي الكعك الذي أمامك، يا فوبي.

ووضع يديه على كتفيها لحظة ما جعلها تشعر براحة بالغة. تلهفت إلى لمسته كما تلهفت إلى حبه واهتمامه. ما أضعفني...

ابتعد وجلس على مقعده لكن، وقبل أن يبدأ بتناول طعامه، ألقى نظرة فولاذية على الطفلين: «لدى هذين الاثنين ما يريدان قوله لمربيتهما».

انتبه جيك وجوش على الفور. كانت أعينهما العسلية جادة ونظراتهما مليئة بالتصميم. يا إلهي، ما أشبههما بماكس!

- نحن آسفان لأننا هربنا.

- نعم، نحن آسفان جداً.

- لن نفعل هذا مرة أخرى، لأنه كان سيئاً للغاية.

تنحنح ماكس: «لندع هذا الآن. لقد اعتذرتما لفوبي، ومن المهم جداً ألّا تكررا فعلتكما. في المرة القادمة قد يكون الوضع أسوأ بكثير».

قالت فوبي وهي تضع يداً على كتف كل من الولدين: «شكراً على قولكما هذا، من المهم جداً لي أن أعلم أنكما ستكونان آمنين».

فقال ماكس بهدوء: «من المهم لي وللولدين أيضاً أن نعلم أنك ستبقين هنا من أجلهما، إنهما يريدانك معهما. في الواقع، لقد أخبرتهما بأنك من الإنزعاج مما حدث أمس إلى حد أنك فكرت في الرحيل، وهما يعارضان هذه الفكرة تماماً».

- لا يمكنني أن أبقى يا ماكس.

وكأنه لا يكفي أنها عرّضت حياة ولديه للخطر فإذا بها تقع في حبه أيضاً. وعندما لم تستطع أن تفسر ذلك، التفتت إلى الصبيين: «يا أحبائي، أنتما سعيدان جداً مع بابا، أليس كذلك؟».

أومأ الولدان ايجاباً فأضافت: «لقد كنت سعيدة جداً معكم هنا، لكنكما بحاجة إلى مربية حقيقية، مربية...».

وسكتت تفكر في ما عليها أن تختار لهما لو عاد الخيار لها: «مربية مرحة ولطيفة وتحضّر كعكاً لذيذاً جداً، وتعرف كيف تختار الفطر ولا تخاف من روائح التراب والمواد التي تلمّع الأرض».

وتصوّرت امرأة في منتصف العمر تكرّس نفسها لهما تماماً، امرأة لطيفة رقيقة للغاية وتشعر بالمسؤولية إلى حد لا يصدّق.

- لكننا نريدك أنت.

- قال بابا إنك ستبقين.

بدا الولدان على وشك الانفجار بالبكاء، ولم تكن فوبي تريد ذلك، ولامت ماكس إذ أوقعها في هذا المأزق، وحملقت فيه.

تنهد وهو يبعد طبق طعامه الذي لم يمسّه: «أنت تثبّطين عزيمة القديس، ألا ترين أن هذا المكان هو مكانك المناسب؟».

- كان هذا ترتيباً مؤقتاً بيننا منذ البداية يا ماكس، لطالما أردت مربية أكثر نضجاً.

- وحصلت على واحدة ذات مخيّلة وعزيمة كافية لكي تجاريهما.

وضرب المائدة بيده قرب طعامه البارد مردفاً: «لكن الأمور تتغيّر والناس يريدون التغيير».

لاحظت أنه قال (يريدون) ولم يقل (يحتاجون) وقالت: «نعم، هذه هي المشكلة بالضبط».

ونظرت من حولها تبحث عن إلهام، ثم وجدت ما تقوله: «أريد أن أحدّث معلوماتي في المهنة، وأثقف نفسي بدلاً من العناية بالأطفال. أريد أن أبدأ بالحصول على تلك الشهادة التي تحدثنا عنها».

- كما تحدثنا أيضاً عن طريقة مقبولة تماماً لبلوغ ذلك الهدف من دون أن تضطري لترك حياتك هنا.

كيف يمكنها أن تحتمل كلامه هذا الآن؟ فقالت بنزق وهي تنظر إلى الطفلين: «لا يمكنني أن أجادلك».

لعلهما صغيران، لكنهما ليسا غبيين، وطرح تلك الفكرة أمامهما مرة أخرى ستقلب كيانهما رأساً على عقب، وتابعت: «أنا أريد أن أتز...، أنت تعرف ما أعنيه، من أجل الحب يا ماكس، وليس لأي سبب آخر».

ودّت لو يرفض ذلك، لو يقول إنه يحبها، وإن بإمكانهما أن يبنيا حياتهما معاً على ذلك الأساس، لكنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك شحب

وجهه ونظر إليها لحظة بصمت، ثم قال بجفاء: «لا بأس يا فوبي، إذا كنت تنوين المعاندة بالنسبة لهذا الأمر، فلا أظن أني قادر على جعلك تغيّرين رأيك، سأبدأ بمقابلة المرشحات للوظيفة منذ اليوم. أظن أنك لن ترفضي منح الطفلين يوماً أو يومين من وقتك؟ ستبقين حتى أعثر على مربية أخرى أليس كذلك؟ لا يمكنني أن أراقبهما طوال الوقت فيما أنا أقابل اللواتي يتقدّمن بطلبٍ. كما أنني بحاجة إلى وضع جدول آخر للعمل، إذ يبدو أن الجدول الموجود يجب أن يتغيّر، لكنني لا أستطيع أن أتخلّى عن أعمالي تماماً».

- يمكنك أن تعتمد على مركز الرعاية.

لكنها سرعان ما أدركت أن اليوم هو الأحد، وموعدهما في المؤسسة هو يوم الأربعاء.

- نعم هذا خيار في النهاية.

نهض ماكس عن المائدة ونظف الولدين من دون تذمّر، ثم أرسلهما لمشاهدة التلفزيون محذراً إياهما من إحداث أي شغب، ثم عاد إلى فوبي: «ومع ذلك ستقدمين المساعدة حتى ذلك الحين؟».

قد يقتلها هذا، لكن وجهي الولدين المتوسلين ما زالا محفورين في ذهنها، وكذلك نظرات ماكس إليها الممتزجة بالحزم والإحباط، ما جعلها تستسلم: «نعم سأساعدكم حتى ذلك الحين».

* * *

بينما أخذ ماكس يبحث عن مربية جديدة، أخذت فوبي تبحث، أثناء أوقات فراغها، عن فرص عمل أخرى. ولم يعجب هذا ماكس الذي راح يزرع غرفة مكتبه جيئةً وذهاباً وقد عاوده القلق. كان الوقت بعد ظهر يوم الأربعاء، والطفلان في (مركز الرعاية) وفوبي تضيّع الوقت في عمل ما بعد أن عادت محمّلة بمجموعة من الصحف، قائلة: «وهكذا يمكنك أن تبحث عن مربية».

- أنت لا تنعم النظر في الصحف.

جاءه هذا الاتهام من الممر خارج مكتبه، فالتفت لدى سماعه صوتها، وكانت قد أصبحت في منتصف المكتب وهي تشير بإصبعها إلى كومة الصحف، متابعة: «أنت حتى لم تفتحها».

نبرة الاتهام في صوتها، عدم اهتمامها بأي شيء عدا الرحيل عن بيته في أسرع وقت ممكن، كل هذا جعلا شيئاً ما ينفجر داخل ماكس: «لقد نظرت فيها».

وسار مبتعداً عنها، وأخذ ينظر من النافذة: «نظرت إلى عشرات وعشرات الإعلانات ووضعت إعلاناً لدى ما لا يقل عن مئة وكالة للتوظيف كما قابلت حتى الآن ست مرشحات لهذا العمل».

- لكنك لم توظف أياً منهن.

بدت وكأنها تمالكت نفسها، وحملت الصحف وتقدّمت منه وألقتها على صدره، فرمى بالصحف على الأرض ثم استدار إليها يواجهها غاضباً: « لا تضغطي عليّ هكذا يا فوبي، صدقيني أنا لست في مزاج يسمح لك بأن تضغطي عليّ حالياً».

فقالت بصوت باك تقريباً: «وأنا لست في مزاج يسمح لي بالبقاء هنا، عليك أن تستمر في البحث، الآن!».

أخذ يحدق في وجهها المنزعج وقال: «قد سبق وأنذرتك».

وعانقها ورحبّت هي بعناقه، رغم أنها دفعته من صدره، لكنه أمسك بها بسرعة متجاهلاً دفعها هذا له، فركلته لتتخلص منه.

- لا تحاربيني.

زمجر بهذه الكلمات، ثم اندفع مرة أخرى لعناقها.

يفترض بها أن تقاومه. يا لجهنم! ما كان عليها أن تفعل ذلك.

وصرفت بأسنانها: «لا أريد هذا».

- لماذا بادلتني العناق إذن؟

وابتدأ الإحباط يتملكه بقوة أكبر بعد أن أصبحت بين ذراعيه مرة أخرى، إنه يرغب فيها إلى حد بالغ.

نطقت فوبي باسمه متأوهة. أيعني هذا الاستسلام؟ القبول؟ كان في نظراتها التي تتفحص وجهه ضعف، وكأنها تختزن هذه الذكرى.

- فوبي يا حلوتي، لا تحرميني من هذا.

وارتجف جسده عندما أحاطت يداها بعنقه تجذبه إليها.

- لا أدري ماذا حدث لي.

تمتماته هذه ترافقت مع موجة حارة اجتاحت جسده وأفقدته السيطرة على نفسه، وأضاف: « مؤخراً، كل ما استطعت التفكير فيه هو أنت».

جمدت بين ذراعيه وحبست أنفاسها بينما بحثت عيناها عن عينيه: «أحقاً؟ أحقاً تفكر بي طوال الوقت يا ماكس؟».

مرّ بيده على شعرها الكث وأجاب: «نعم، ما أن أنظر إليك حتى أشعر بالرغبة فيك».

فتراجعت عنه قليلاً: «الرغبة الجسدية، هذا ما تقصده أليس كذلك؟»

كان يريدها إلى حدٍّ كبير... أرادها لدرجة أنه عرض عليها الزواج كجزء من صفقة كاملة.

- نحن متلائمان معاً، وكلانا سيستفيد من هذه العلاقة حتى لو لم تقبلي بالزواج.

الضحكة التي أطلقتها وهي تدفعه عنها، حملت بعض التوتر، ووقفا متواجهين يتبادلان النظرات لثوان قبل أن تقول: «لا تلمسني مرة أخرى يا ماكس».

وازدادت ابتعاداً عنه لكن نظراتها بقيت ثابتة على وجهه: «في الواقع، أنا سأجنبك مشكلة القلق بهذا الشأن وأرحل في هذه اللحظة، ما من سبب يجعلك عاجزاً عن مراقبة ولديك بنفسك إلى أن تجد مربية. عملك سينتظر عند الضرورة».

- ليس لديك وسيلة نقل، أو وظيفة تذهبين إليها.

- يمكن لبرينت أن يوصلني إلى محطة القطار وسأرحل إلى سيدني حيث لديّ أصدقاء يمكنني أن أمكث معهم حتى أجد عملاً يناسبني.

- أي أصدقاء ومن يكونون؟ هيا... كوني عاقلة.

وجد كلماته هذه بسيطة مقارنة بالإحباط الذي جعلته يشعر به.

- لست مضطرة لأن أعطيك التفاصيل فأنا لم أعد أعمل لديك وأنا راحلة.

كان ماكس على وشك الإمساك بها ليحدثها عن كافة الأسباب التي تجعل تصرفها هذا جنوناً عندما دق جرس الهاتف، فشتم وهو يسير نحو الهاتف ويرفع السماعة.

كان الاتصال من مدير أعماله في نيوزيلاندا الذي وقع في مأزق مع زبونين.

استغرقت المخابرة دقائق ثمينة. وعندما وضع ماكس سماعة الهاتف، كان المنزل غارقاً في صمت كريه. وأظهر البحث أن أمتعة فوبي اختفت كحالها هي. لكنها تركت ورقة على مائدة المطبخ تقول فيها إن برينت سيأخذها إلى المحطة وإن على ماكس أن يتذكر إحضار ولديه من مركز الرعاية.

يا لوقاحتها! وأخذ يطوف حول البيت من دون هدف حتى حان موعد ذهابه فاستقل سيارته ثم اتجه إلى المركز ليحضر ولديه. سيكون ملعوناً لو استعمل السيارة الصغيرة التي كانت فوبي تستعملها رغم أنه من اشتراها لها، لكنه لا يريد ما يذكره بها وبضيق أفقها وعنادها.

وعندما عاد إلى بيته، لم يكن مزاجه قد تحسن. وتذمّر الطفلان عندما أخبرهما أن فوبي رحلت وأن مربية أخرى ستأتي بدلاً منها ثم أخذا يلعبان في المقعد الخلفي وهما في طريقهما إلى البيت، لكن سرعان ما تحوّل اللعب إلى النزاع بينهما لينتهي الأمر بهما إلى البكاء حين نظر أبوهما إليهما مزمجراً بغضب.

كانا جالسين أمام التلفزيون عندما لاحظ ماكس أن سيارة برينت

عادت. يمكنه الآن أن يعطي البستاني تعليمات عن عمل الغد فطلب من الولدين أن يمكثا في البيت لا يخرجان منه حتى يعود. وخرج يبحث عن البستاني ليجده في شقته، وقد ترك الباب مفتوحاً. يبدو أنه شغّل التلفزيون فور دخوله، وجلس ينظر إلى خبر عاجل عن خروج قطار عن سكته.

- فلنتحدث عن عمل الغد. ثمة أمور أريدك أن تفعلها قبل أن تبدأ بعملك المعتاد.

كان صوت ماكس جاداً نوعاً ما رغم محاولته ضبطه، فرفع برينت يده وكأنه يحاول إسكاته: «انتظر، أنا قلق من هذا الخبر».

التفت ماكس إلى التلفزيون وإذا بالمذيع يذيع خبراً عاجلاً عن خروج قطار عن سكته، وبدا اهتمام برينت واضحاً.

تابعا الاستماع إلى بقية الخبر بصمت ثم اندفع ماكس على الفور إلى الباب وهو يسأله: «في أي وقت وضعتها في القطار؟».

أخبره برينت فأومأ ماكس، محاولاً ألّا يظهر مزيداً من القلق لكنه فشل فشلاً ذريعاً: «سأتصل بالمحطة لأرى ما حدث. تركت الولدين في البيت، لذا عليّ أن أعود».

- سآتي معك.

أومأ ماكس من دون أن يتوقّف. وعندما طلب الاستعلامات لم يستطيعوا إعطاءه معلومات تشفي غليله.

لم يقولوا له بالضبط ما حدث أو ما إذا كان هناك إصابات، ولكن من المؤكد أن فوبي على متن ذلك القطار. وشعر ماكس بالغثيان: «سأذهب للبحث عنها».

وكان قد خرج من الباب حين سمع برينت يناديه: «أتريدني أن أمكث هنا مع الولدين؟ أم أحضرهما ونتبعك؟».

كان قد نسي أمر طفليه، فاستدار إلى الخلف وهو يحاول أن يفكر: «لا أدري ما الذي سأجده هناك، لا أريد أن آخذهما، ولكن

ينبغي ألّا أتركهما هنا، فهما لم يمكثا معك قط من قبل».

- سأحضر عمتي كولين.

وكان برينت قد اندفع إلى الهاتف: «لديها سيارة ويمكنها القدوم إلى هنا. إنها امرأة مسؤولة جيداً، يمكننا أنا وهي أن نراقبهما جيداً، هل هذا ينفع؟».

أومأ ماكس: «هذا حسن جداً».

اتفق برينت مع عمته، ثم أومأ عندما أسرع ماكس يبتعد بعد كلمة شكراً. كانت أفكاره مع فوبي. أتراها نجت؟ عليه أن يعرف هذا وبسرعة.

١٤ ــ حتى آخر الحياة

كان القطار قد خرج عن سكته في منطقة شديدة الانحدار، بجانب الطريق العام، حيث احتشدت سيارات الإسعاف والشرطة وعربات الإنقاذ. أوقف ماكس سيارته بعيداً، ثم خرج منها على عجل وأخذ يركض. مرّ بشرطيين وعدد من الموظفين، راحوا ينادونه ليقف قبل أن يدرك أن صوته كان يهتف باسم فوبي.. واعتصر قلبه لدى رؤيته العربات المنقلبة.... رأى كثيرين يطوفون في أنحاء المكان، والدوار يبدو عليهم. كان البعض يتوجه نحو الطريق العام، فيما البعض الآخر يتلقى الإسعافات. كما صادف أولاداً يبكون، وأشخاصاً يتبادلون المواساة، فضلاً عن سائق القطار الذي وقف محاطاً بالشرطة. لم يكن ماكس يأبه سوى لشخص واحد، عليه أن يجدها سالمة، هذا جلّ ما يريده.

- هنا يا ماكس، أنا هنا.

التفت نحو الصوت، وجدها هناك، تحاول أن تقف وهي ترتجف من حيث جلست مستندة بظهرها إلى جذع شجرة.

أخذها بين ذراعيه قبل أن يدرك ما يفعله، ثم زفر وهو يبعدها عنه: «هل أصابك ضرر؟ هل فحصك أحد؟ سأستدعي الإسعاف».

- أنا بخير، ثمة رضوض ليس إلّا، و ما زلت أرتجف من تأثير الصدمة.

كانت ابتسامتها باهتة، وانحدرت دمعة على وجهها القذر: «لقد

فحصوني يا ماكس، صدقني. كنت فقط أستجمع قواي قبل أن أقرر ما سأفعله، يبدو أن هذا القطار لن يذهب إلى أي مكان ولفترة».

- أنت ستأتين معي إلى البيت حيث يمكنني أن أعتني بك.

كان هذا هو الحل الوحيد في نظر ماكس وأي حل آخر هو سخافة مطلقة. لكنه أراد أولاً أن يلمسها، يعانقها، يطمئن نفسه مرة أخرى إلى أنها آمنة، وجذبها إليه بلطف، فتنهدت وأسندت رأسها إلى صدره، فوقفا طويلاً هكذا: «أنت معي الآن، سأفعل كل ما أستطيعه لأبقيك آمنة».

فتمتمت تقول: «لم يقع ضحايا، وأنا مسرورة لذلك».

- أريد أن أعرف لما حدث هذا الأمر اللعين.

قال ماكس هذا غير قادر على أن يشعر بالابتهاج فيما فوبي تبدو وكأنه ألقي بها من فوق جرف عالٍ. ما تعرضت له كان فظيعاً.

هزت كتفيها: «بعض الأغبياء تركوا سيارة على السكة، كيف يفعلون ذلك؟ كنا محظوظين لأن السائق رأى ذاك العائق فبذل جهده ليتجنب الاصطدام لكنه لم يستطع أن يبطئ من سرعة القطار في الوقت المناسب، ما زال بإمكاني أن أقصد أصدقائي في سيدني...»

- إذا بقيت مصممة على ذلك، فسأتصل بهم من أجلك. ولكن ما زال عليك أن ترافقيني إلى بيتي.

نظرة واحدة إلى وجهها أنبأته بأن ليس لديها أيّ خطة على الإطلاق.

- وماذا عن أمتعتي؟ كانت كلها على متن القطار.

- سنستعيدها لاحقاً إذا أمكننا ذلك. وحتى ذلك الحين يمكنك أن ترتدي ملابس كاترين. سأعتني بك فلا تقلقي.

سالت الدموع على وجنتيها فأشاح بنظره عالماً أنها ستكره فقدها لرباطة جأشها، ثم ساعدها على صعود المنحدر ومن ثم على الوصول إلى سيارته. بدا واضحاً أنها ما زالت تعاني من الصدمة.

جذب ماكس وشاحاً سميكاً من الصوف من المقعد الخلفي ولفها به ثم نظر إلى وجهها الشاحب رغم الدفء وانطلق بالسيارة.

عندما وصلا إلى المنزل، رفعت رأسها قليلاً وقد اتسعت عيناها قلقاً: «ماذا عن الولدين...؟».

- برينت وعمته يرعيانهما جيداً، انتظري عندك.

استدار حول السيارة وفتح لها الباب ثم حملها بين ذراعيه فدسّت وجهها في صدره وتركته يحملها إلى الداخل من دون احتجاج. حتى تحيات ولديه واسئلتهما عند رؤيتهما لم تحدث أي تأثير، لكن ماكس طمأنهما إلى أن فوبي في أحسن حال، وإنها متعبة ومكتئبة فقط، ثم أخذها إلى غرفته. لكن، هل هي حقاً بأحسن حال؟ أخذ يتساءل عما منعه من أن يأخذها إلى المستشفى، لكنه ما لبث أن تذكر أن رجال الإسعاف فحصوها وقالوا إنها بخير، ويمكنها العودة إلى البيت لكن ماذا لو لم تكن بخير؟

- فوبي، اخلعي ملابسك واستلقي في الفراش.

لم يخطر في باله أن يعيدها إلى غرفتها التي غادرتها هذا الصباح. إن فوبي تخصه وهو لن يدعها ترحل مرة أخرى، ومهما طالت المدة اللازمة لاستعادة عافيتها فستمضيها في سريره، بينما هو يجلس بجانبها ليراقبها.

مدّدها على السرير ثم أحضر منشفة مبللة من الحمام وأخذ يمسح وجهها وذراعيها الملطخة بالتراب فلاحظ عدداً من الرضوض وبعض الخدوش. أخذت يداه ترتجفان وأسرع في مهمته ثم لفها بالملاءة والبطانية.

- ارتاحي الآن يا حبيبتي، سأحضر لك بعض الحبوب المسكّنة لتريحك أثناء الليل.

أومأت برأسها لكن لم يظهر عليها أنها واعية تماماً. أراد أن يأخذها بين ذراعيه ليعانقها ولا يدعها تذهب أبداً لكنه وقف بجانب

السرير ينظر إلى وجهها الشاحب وشعرها المشعث وعينيها الزائغتين، ثم أخذ يفكر في أنه يحبها ويريدها في حياته. إنها المرأة الوحيدة التي يشعر بحاجة إليها ورغبة فيها.

خرج من الغرفة إلى المطبخ حيث جلس برينت وعمته وولداه، فنظروا إليه كلهم مستطلعين.

- حالتها لا بأس بها، ثمة رضوض وخدوش خفيفة، لكن حالتها لا بأس بها.

فقال برينت بارتياح: «الحمد لله».

ثم عرّفه بعمته وهي امرأة حسنة المظهر في الخمسينات من العمر، ويبدو أنها تمكنت من إقامة علاقة صداقة مع طفلي ماكس. شكرها ماكس على مساعدتها لهم، فقالت: «يسرّني هذا. في الحقيقة، كنت أشعر بشيء من الوحشة بعد أن غادر آخر أولادي العش، فأنا أرملة. وهكذا بقيت وحدي أدور في أنحاء البيت».

أومأ ماكس مفكراً وهو يفتح خزانة الأدوية ليأخذ الحبوب المسكّنة فيما قالت العمة كولين بهدوء: «فكرنا في أن نأخذ الطفلين في نزهة ثم ينامان معنا في بيت برينت بعد موافقتك أنت».

نظر ماكس إلى العينين الرقيقتين ثم قال بارتياح: «شكراً، أقدّر لك منحي هذه الفرصة لأخدمها بنفسي».

فأومأت: «لا بأس».

قبّل ولديه، ثم راقبهما وهما يخرجان من البيت قبل أن يعود إلى فوبي ليعطيها الحبوب، فوجدها تنام متكوّرة ولم يكن الارتياح بادياً عليها.

أيقظها بلطف وساعدها على ابتلاع الحبوب، ثم خلع حذاءه وجوربيه وجلس إلى جانبها في السرير. وعندما أخذها بين ذراعيه، تنهدت واندست به، وكان هذا كافياً لماكس... حتى الآن.

* * *

استيقظت فوبي ببطء وهي تشعر بآلام متفرقة في جسمها. لا شك أنها الرضوض، لكن حمداً لله أن الأمر لم يتسبب بكارثة. عندما فتحت عينيها، لم تعجب حين رأت ماكس ينظر إليها والقلق بادٍ في عينيه. نظرت إلى نفسها فرأت أنها ترتدي قميصه، ولم تعرف كيف حدث ذلك: «هل وضعتني أنت في السرير، الليلة الماضية؟ ما الذي أفعله في غرفتك؟».

- يا لها من أسئلة كثيرة في هذا الصباح الباكر!

كانت كلماته صارمة لكن ملامحه رقيقة: «عليك أن تتعلمي أن تكوني أكثر رقة».

فخفقت بأهدابها: «حسناً، أنا...».

أسكتها ماكس عن متابعة كلامها بعناق رقيق.

لقد مرّت بظروف صعبة في الأمس، وهي لا تريد أن تشعر بالحرمان حالياً. إذا أراد ماكس أن يعانقها، فليكن إنما ليفعل ذلك بشكل صحيح على الأقل.

ولفت ذراعها حول رقبته، مظهرة له مشاعرها.

تأوه وشدّها إليه فتملكتها البهجة وأخذت تتساءل عما إذا كان بإمكانها أن تتنفس. وفجأة تركها قائلاً: «أنت في حالة إنهاك وما كان عليّ أن أفرض نفسي عليك بهذا الشكل، أنا آسف».

- أيها الأحمق!

وكانت على وشك إرغامه على معانقتها مرة أخرى عندما انقشع الضباب عن أحاسيسها ما جعلها تتذكر أنه ما كان عليها أن تفعل هذا على الإطلاق. فماكس لا يحبها، ولا أمل في أن يتغيّر. وبدلاً من السعي إلى عناق آخر، قالت: «كيف وصلت معي إلى هنا؟».

أسندها ماكس إلى الوسائد، ثم اتكأ على مرفق واحد فوقها وأخذ ينظر إليها.

وأخيراً قال: «ساعدتك قليلاً».

- آه، هذا حسن.

- قال وهو يعبث بشعرها: «هل تعلمين أن لبرينت عمة جميلة اسمها كولين؟ إنها في الخمسينات وأرملة».

حاولت عبثاً أن تبتعد عنه وهي تجيب: «هممم... أظن أن هذا حسن».

- غادر آخر أولادها البيت، وهي تعيش وحدها. سأطلب منها أن تعمل كمربية لجيك وجوش وأظنها ستوافق.

تمنت فوبي لو أن شفتيها لا ترتجفان، فهي حقاً لا تحتمل حديثاً كهذا، لكنها قالت: «هذا حسن يا ماكس، أنا مسرورة».

- نعم، وهكذا لم أعد أريدك هنا من أجل الولدين.

ابتلعت ريقها وتملكتها غصة وهي تومئ قائلة: «لا أظن أنك ستحتاج إليّ طبعاً».

وفجأة، أصبحت ملامح ماكس جادة للغاية: «لهذا، عندما سأطلب منك البقاء يا فوبي، فهذا يعني أنني أريدك لنفسي وليس من أجل الولدين، وليس لأنني أعطف عليك أو أريد أن أساعدك بتوظيفك. إنني مقتنع بأنك قادرة تماماً على شق طريقك في الحياة من دون عوني. أنا أريدك هنا لمصلحتي الخاصة».

لم تفهم، وقطبت حاجبيها بشك: «لا أظنني فهمت».

ربما أصيبت بضربة على رأسها أمس ما جعلها لا تتذكر.

- أنا بحاجة إليك يا فوبي.

وطبع قبلة على أنفها، ثم أغمض عينيه وأخذ نفساً عميقاً، قبل أن يقبّل شعرها ويرفع رأسها لتتقابل أعينهما مرة أخرى: «الأمر بسيط جداً، فأنا أحبك. أرأيت؟ أحبك إلى أقصى حد ممكن».

- أنت تحبني؟

كررت قوله بغباء وهي تنظر إليه: «لكنك لم تقل هذا قط من قبل».

- حتى الأمس، لم أكن أعلم.

وسكت يبحث عن الكلمات: «لدي الكثير لأقوله لك يا فوبي، لكنني لا أعرف من أين أبدأ. أولاً، لقد ندمت على سوء معاملتي لك حين كنت أصغر سناً. أنا أعلم أنني كنت أتصرف أحياناً بشكل سيء، محاولاً أن أجعلك تتصرفين بالشكل الذي أظنه أفضل، لم أعرف قط امرأة مثلك. كنت تتحدينني في كل لفتة، ولم أعرف كيف أتعامل معك، وما زلت لا أعرف، لكنني أدركت الآن أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك».

عادت فوبي بأفكارها إلى عهد الطفولة ذاك، إلى مواجهاتها مع ماكس، وإلى شوقها الخفي لأن تجد من يهتم بها حتى بنصف مقدار ما كان ماكس يهتم بأخته.

- كنت أغار من كاترين لأنك تحبها كثيراً.

أطلق ماكس ضحكة حادة ثم هز رأسه: «كنت أشعر بالأبوة لها يا فوبي، وإلى حد شنيع بحيث توسّلت إليّ كي أعود إلى العمل لئلا تبقى معي لفترات طويلة».

لكن فوبي لم تصدق أنه مقتنع بهذا: «أنت مخطئ».

- لا أبداً.

وقبل أن تجادله، تابع يقول: «لِمَ تظنينني إذن كنت أحاول أن أبقى بعيداً عن جيك وجوش؟ لم أشأ أن ينبذاني يوماً ما ويطلبا مني الابتعاد. ظننت أنه من الأفضل أن تتجاوز تلك الخطوة من الآن، وأنهما سيكونان أسعد بتلك الطريقة».

- آه، يا ماكس.

وتألم قلبها، لم تكن تدرك أن ماكس يحمل كل هذا العبء.

- لكن هذا لن يمنعهما من إبعادي عنهما يوماً ما.

واعتصرت كلماته قلبها بينما تابع كلامه: «لكنهما ولداي وأنا أحبهما للغاية وعليّ أن أبقى في حياتهما طالما يسمحان لي بذلك».

فانفجرت تقول: «كانت كاترين تعلم أنك تحبها».

نظر ماكس إليها رافعاً حاجبيه بتساؤل فتابعت: «لكنها كانت تحب أن تمضي مزيداً من الوقت في المدرسة، لتستمتع بالجو الإجتماعي، ولهذا السبب طلبت منك العودة إلى العمل».

بادلته فوبي النظرات، مصممة على أن تجعله يسمع هذا ويتقبله: «أنت جعلتها تشعر بالأمان بعد موت والديها، بالأمان إلى حد أنها لم تخشَ أن تطلب منك ذلك، وسيدمرها أن تعلم أنك ظننت هذا بها طوال الوقت».

قال ضاحكاً: «لن نخبرها إذن».

ثم هز رأسه وضحك مرة أخرى، قبل أن يسأل: «هل أنت واثقة؟»

- نعم، واثقة.

كانت واثقة تماماً، وسرها أن تخبره بذلك.

- أريد الآن أن نتحدث عنا، أنا وأنت، يا فوبي.

ثم مال نحوها وعانقها: «أحبك وأريد أن أتزوجك، وأمضي بقية أيامي معك».

أدركت أنه جاد في قوله. إنه يحبها حقاً! وتسارعت خفقات قلبها، ثم عادت فهدأت: «لا أستطيع يا ماكس، لأنك ستندم. لست بالصفقة الرابحة».

- بل أنت كذلك. إنك جميلة للغاية وموهوبة وحكيمة، ولديك حنان الأمهات.

وأحاط وجهها بيديه برقّة وقد أظلمت عيناه الزرقاوان بالمشاعر وهو ينظر إلى وجهها: «وأنا أريدك بأي شكل كان».

أفلتت من بين شفتيها زفرة معذبة: «لا يمكنني أن أصبح أماً أبداً يا ماكس، لأنني عاقر».

- ماذا تعنين؟ وكيف يمكن هذا؟

كانت صدمته واضحة، واشتدت ذراعاه حولها حتى كاد يخنقها.

تراجعت عنه ونظرت إلى وجهه، لم تعرف حتى الآن أن القلب

يستمر في التحطم مرة بعد أخرى.

ردّت: «أنا لم أخلق كبقية الفتيات، الرحم لدي لا يعمل، فأنا لم أعرف العادة الشهرية سوى مرتين في حياتي».

بدا العذاب على وجهه: «ليت السبب خلاف ذلك».

قالت وهي تبتعد عنه: «هذا يغير الوضع، أعرف هذا وأتفهمه».

لكنه رفض أن يدعها تذهب، وأخذ يمرّ بيده على ظهرها بلطف: «لا يا فوبي، لا أظنك فهمت شيئاً على الإطلاق».

ابتلع ريقه بصعوبة، وعندما عاد إلى الكلام، كان صوته أكثر رقة وعذوبة مما سمعته من قبل: «إنني أتألم من أجلك لأنك لن تحملي وتلدي طفلاً قط. أتمنى لو أستطيع إصلاح ذلك من أجلك، ويؤلمني عجزي عن ذلك».

- أرجوك، لا أريد أن نتكلم عن هذا.

كانت كلماته تمزقها، إذ تأتي على ذكر ما لا تستطيع الحصول عليه.

- لكنني أود الحديث عن ذلك يا فوبي. عليّ أن أتحدث عنه.

وجلس، ثم طوّقها بذراعيه: «يؤسفني عجزك عن إنجاب طفل يا فوبي، وأسفي هذا من كل قلبي، لكنني مسرور أيضاً لأنك أخبرتني فهذا ساعدني على فهمك أكثر. أنا أريدك أن تكوني زوجتي».

وأتبع قوله هذا بعناق قوي: «كما أريدك أن تكوني أماً لجيك وجوش. لقد تحديتني لكي آخذهما وأضمهما إليّ. أنا الآن أتحداك لتفعلي الأمر نفسه، أن تقبليهما كابنين لك ولي، لكي نصبح جميعنا أسرتك».

كانت من الإرهاق بحيث لم تستطع أن تتكلم، وسالت الدموع على وجنتيها، دموع حارة خرجت من أعماقها.

أخذ ماكس يمسح دموعها عن خديها بأنامله.

- يمكننا لاحقاً أن نتبنى طفلاً إذا شئت. أنا لا يهمني ذلك يا

فوبي، صدقيني. أنا أريدك فقط بجانبي في الحياة، ولآخر حياتي.

وحوّل وجهها إليه حتى تلاقت أعينهما: «لا أستطيع أن أعيش بدونك، ولا أريد ذلك. قولي إنك ستتزوجيني».

قالت نعم وهي تضحك وتبكي وتدفن وجهها في عنقه وتلف ذراعيها حوله: «نعم، أنا أريد أن أتزوجك وأكون أماً لجيك وجوش، أن نكون أسرة واحدة».

وتنهدت بسعادة، وتملكت ماكس رجفة عميقة وهو يتنهد قائلاً: «شكراً، أنت لا تعرفين ما يعني هذا لي».

وضمها إليه من جديد: «أنا بحاجة إليك، وإلى حبك يا فوبي».

وسألته بصوت مرتفع: «لكن... أين الطفلين؟»

- إنهما مع برينت وعمته.

ونظر إلى الساعة: «ما زال الوقت مبكراً، وأنا واثق من أننا بخير».

طوقت فوبي حبيبها ماكس بذراعيها ثم جذبته إليها.

- إذن، من الأفضل أن ننتظرهما لنعلن لهما الخبر.

الخاتمة

المعجزة

وحلّ الصيف. كان النسيم يهبّ دافئاً يحرك أوراق شجر المطاط، ويتنهد برقة عبر بساتين التفاح. وقف ماكس وفوبي وجيك وجوش والعمة «هاتي» عند طرف الأملاك.

لعل المربية كولين تبكي في بيت المزرعة أمام كوبي الحليب اللذين تركهما الطفلان على مائدة الإفطار. فقد أصبحت عمة برينت عاطفية للغاية في المناسبات الهامة، وذهاب الصبيين إلى المدرسة الابتدائية لأول مرة هو مناسبة هامة بكل تأكيد. كما أن كاترين زارتهم مرات عدة خلال الشهور الماضية حيث تعرفت إلى ابنيّ أخيها، لكنها لم تكن هنا اليوم.

ظهرت الحافلة من بعيد، وعندما اقتربت منهم أخذت تهتز بعنف.

- إنها هنا، إنها هنا.

أخذ الولدان يقفزان متحمسين، واستطاعت فوبي أن تدرك مشاعر ماكس وهو يقف بجانبهما، لكنها نظرت إلى «هاتي» ولم تستطع إلا أن تبتسم.

كان ماكس قد قلب استراليا رأساً على عقب بحثاً عن نسيب حقيقي لفوبي، شخص غير أمها وأبيها. وكانت فوبي قد ادّعت أنها لا تريد أحداً ما دام لديها ماكس وولديه لتحبهم، لكن ماكس عثر على «هاتي»، وهي ابنة خال بعيدة من ناحية أمها، وامرأة تفيض حباً ما

www.liilromancia.com

جعل فوبي شاكرة للغاية.

كانت هاتي تعمل بالقرب من «بلاك هيث» حيث احترفت صناعة الخزف، وقد أولعت بفوبي وأسرتها.

كانت فوبي سعيدة للغاية. وعندما التفتت إلى ماكس ابتسمت في وجهه الحبيب: «أراك عابساً، سيكون الولدان في أحسن حال، صدقني».

أخذ نفساً عميقاً، ثم أومأ وحاول أن يظهر الارتياح: «أعرف ذلك، كل ما في الأمر أن الفراق صعب».

كان ماكس يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع هذه الأيام، ويمضي بقية الأسبوع في بيته حيث يعمل في المزرعة أو يلعب مع الطفلين، وسيواجه صعوبة في تقبّل غيابهما وخسارة هذا الوقت الذي يمضيه معهما. لكن فوبي ابتسمت فستبذل جهدها لتبقيه مشغولاً بأي شكل. حيّاهم سائق الحافلة، ثم توقف بعيداً عن الطريق العام. وعندما انفتح الباب، التفتت فوبي إلى الولدين وعانقتهما بقوة وبسرعة فائقة.

عندما صعد جيك وجوش إلى الحافلة بثقة وجلسا بجانب أحد أصدقائهما من دار الرعاية، شعرت فوبي بغصة في حلقها، لكنها ابتسمت لهما ابتسامة واسعة. إنه يومهما.

وعندما تحركت الحافلة، رفعت هاتي يدها تلوح لهما بمنديلها الوردي، وكذلك فعل فوبي وماكس.

عندما غابت الحافلة عن الأعين، أخذ ماكس فوبي بين ذراعيه فدفنت وجهها في صدره، لكنها شعرت بأن عليها أن تظهر نوعاً من الاحتجاج: «لست بحاجة إلى التعزية. أنت تعلم أن ذهابهما كان رأيي أنا».

انفجر ماكس ضاحكاً: «من قال إنك أنت من يحتاج العناق».

وتلاقت شفتاهما فابتسمت له شاكرة سعيدة. لديها ماكس... أكثر الأزواج حباً... وولدان رائعان قد تقبلاها أماً جديدة لهما بكل

بساطة ومن دون أن يلتفتا إلى الوراء.

قال ماكس بتردد وهو يتأبط ذراعها ليسيرا عائدين إلى المنزل: «أنت لم تخبريني عن موعدك مع آخر إخصائي».

لم ينظر إليها، وأدركت أنه لا يحب أن يسألها. ماكس قد أصر عليها كي تزور الطبيب عندما اعترفت له بأنها لم تذهب قط إلى طبيب لفحص حالتها. أراد أن يتأكد من أنها بخير وصحيحة الجسم بحيث لن يصيبها أذى الآن أو في ما بعد.

ظهر من الفحص الطبي أنها صحيحة الجسم، وشعر الإخصائي بأن لديها فرصة للإنجاب يوماً ما، إذا ما ابتسم لها الحظ. وكان قد عالج حالات أخرى لنساء لم يعرفن العادة الشهرية أو كانت نادرة لديهن، ومع ذلك استطعن أن يحملن، وقد أصرّ على أن تراجعه لدراسة حالتها فثمة أمور لم يتناولها الفحص بعد. لم تهتم فوبي، فلديها ماكس والطفلان. كان قلبها ممتلئاً... ولم يمضِ يوم من دون أن تستيقظ صباحاً باسمة شاكرة سعيدة، وكانت تذهب إلى الطبيب فقط امتثالاً لرغبة ماكس. التفتت إليه باسمة: «قد حدثني الطبيب في الواقع عن التخصيب».

رفع ماكس حاجبيه، ولم يستطع أن يخفي ومضة الرجاء في عينيه، وابتسمت هي تغيظه قليلاً: «نعم، هذا ما قاله، لكن هذا لم يعد مهماً».

أومأ وهو يبتسم لها: «حسناً لا بأس. هذا غير مهم، تحدثنا عن ذلك من قبل، نحن لسنا مستعجلين، يمكننا القيام بذلك في وقت لاحق إذا شئنا...».

قطع حديثه وهو يراها تبتسم، وضحكت هي: «ألن تسألني عن سبب ضحكي؟».

نظر إليها وكأنها مجنونة لكنه ردّ عليها، كما توقعت: «لماذا تضحكين؟».

أمسكها ورفعها إلى أعلى: «أخبريني عن سبب ضحكك أو أبقيك هكذا طوال النهار».

- أنا أضحك لأن التخصيب لم يعد مهماً.

نظر إليها متسائلاً: «وكيف؟ لا أفهم، أتريدين أن تقولي إن ثمة أمر آخر حدث؟ وأنك تأكدت من أنك لن تحملي أبداً؟».

فهزت رأسها: «لا، أنا لا أقول هذا لأنني حامل».

وأخذت تلمس يده بلطف وهي ترى تأثير كلماتها في وجهه، ثم وضعت يده على بطنها: «هل تشعر بشيء ما؟».

- ظننت لتوّي...

وسكت وهو يتفحص وجهها بانفعال بالغ، ثم هز رأسه: «هل أنت واثقة؟ هل أجرى لك اختباراً؟ هل أنت بخير؟ هل الطفل بخير؟»

- بكل تأكيد، لقد أجرى لي اختباراً وأنا بخير والطفل بخير.

وابتسمت فتأوه، ورفعها بين ذراعيه وأخذ يدور بها حتى دار رأسها وأخذت تضحك، ثم قبلها من كل قلبه. وعندما افترقا كانت الدموع تسيل من أعينهما.

- أتريدين هذا فعلاً يا فوبي؟ لم أسألك قط من قبل. أظنني لم أشأ أن أسألك لأني اعتبرت أنه لن يحدث قط.

فقالت وهي تدني رأسه منها: «بل أريده لأنني أحبك، ولأن الله منحنا هذا رغم الموانع كلها. إنه حظنا نحن الاثنين، أن نحصل على ما كنا يائسين من حدوثه. سترى الطفل منذ ولادته، وأنا... حسناً، سأحصل على هذا وأكثر».

فقال بصوت أجش: «نعم، أنا أحبك يا فوبي. أحبك للغاية».

- وأنا أيضاً كذلك.

إنها تحبه وهذا هو المهم.

انتهت